من كليلة ودمنة

إعداد

إبراهيم عزوز

تقديم

أحمد رجب

الكتاب: من كليلة ودمنة

إعداد: إبراهيم عزوز

تقديم: أحمد رجب

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

من كليلة ودمنة ، إعداد / إبراهيم عزوز، تقديم/ أحمد رجب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

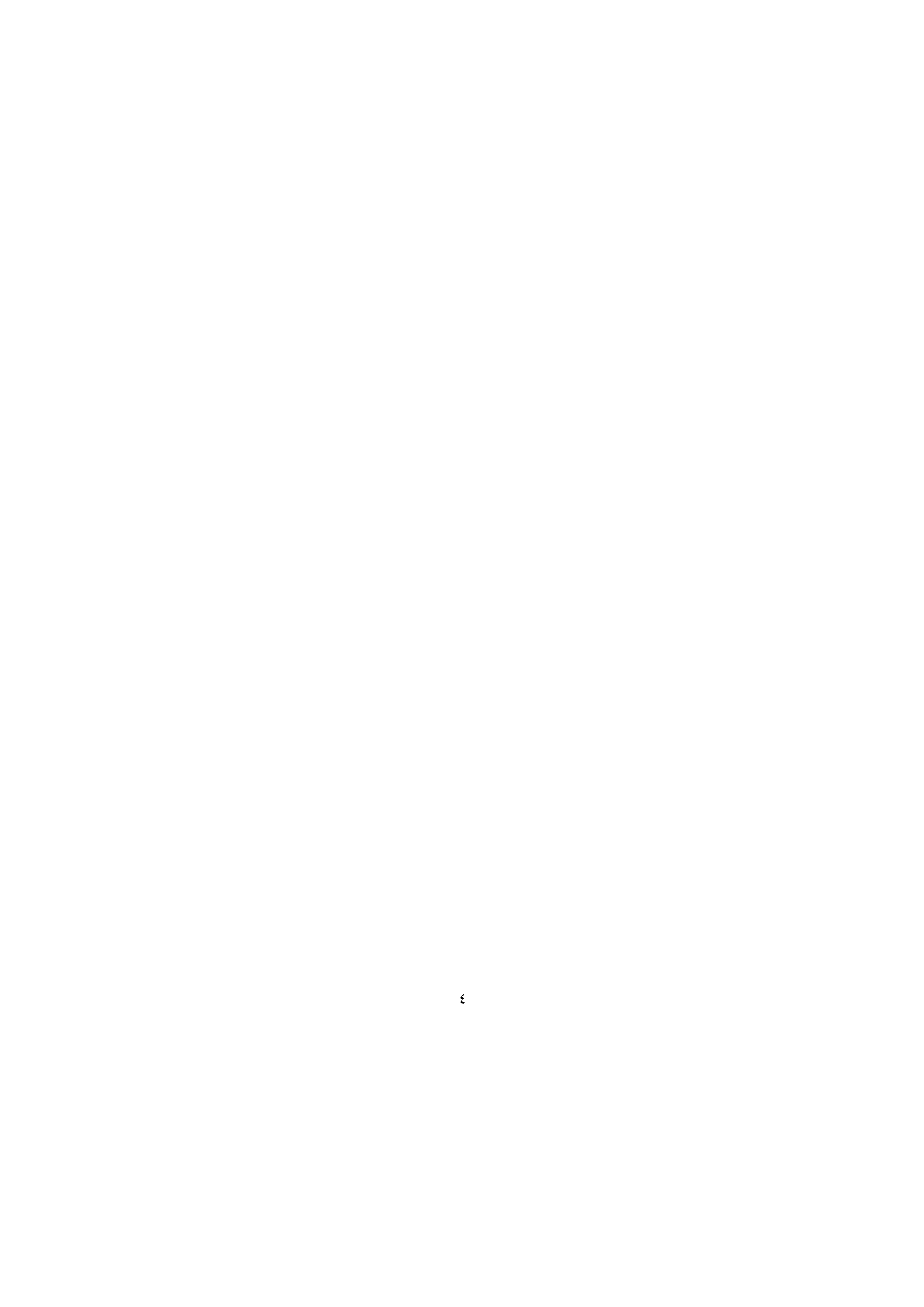
١٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٦٨٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥١٦٩ / ٢٠٢٣

من كليلة ودمنة





تقديم

في عام ٣٠٠م، فرغ الحكيم بيدبا، رأس البراهمة في الهند، بعدما حبَسَ نفسه عامًا بصحبة تلميذه الأثير، من وَضْع كتابٍ أمَرَه بكتابته الملك دبشليم عقب تخلّيه عن ظلم الرعية بناءً على نصائح حكيمه، وأراد مؤلفًا «يكون ظاهرُه سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية»، وخرَجَ من تحت يديه بشكل متفرد، فجعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير، ليكون ظاهره لهوًا للخواص والعوام، وباطنه رياضةً لعقول الخاصة، وقد بلغت سعادة الحاكم بالكتاب حدا كبيرا، فكرّم الحكيم البراهمي في حفل ضخم، وأمَر بأن يُحفظ الكتاب في مكتبته الخاصة، وألا يخرج منها مهما حدث، وكان هذا هو الأصل الأول لأحد أعظم كتب الأدب العالمي سمّاه صاحبه الأصلي «پنچاتنترا» (كلمة سنسكريتية تعني الفصول الخمسة)، إلا أنه اشتهر في كافة أصقاع الأرض بلقب النسخة العربية منه «كليلة ودمنة»، ومن النسخة العربية انتشر الكتاب إلى الأدب العالمي، فالنسخة العربية هي النسخة التي ترجم عنها الكتاب إلى مختلف اللغات الأخرى.

على الرغم من حذر الحكيم بألا يبلغ أمر كتابه العُمدة أهل فارس، إلا أنه وصلهم، وما إن علم ملكهم كسرى أنوشروان (٥٣١–٥٧١م) بشأنه حتى بعث بـ «بروزيه»، رأس أطبائه، الرجل «كامل العقل والأدب،

ذي الحسب والصناعة الشريفة، إلى الهند حيث «تلطّف وأخرجه من البلاد، وأقره في خزائن فارس، وعندما سلّم بروزيه الكتاب لملكه، سعِدَ به الملك وأمر أن تُفتح له «خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة» يأخذ منها ما يشاء، إلا أن بروزيه طمع فيما هو أكبر؛ أن يحوّل الوزير بزرجمهر الكتاب إلى اللسان الساساني، على أن يجعل على أوله بابًا يصف أمر الطبيب وحاله، وبذلك يضمن أن يبقى ذِكره للأبد؛ وهو ما استجاب له كِسرى ونفّذه له آمره. كتبه وأتمّه بلغته الفهلوية (إحدى لغات الفرس القديمة) وسط احتفاء ملكي به.

أما النسخة الفارسية التي أضاف لها المترجم سبعة أبواب جديدة، فقد تضمنت قصصًا هندية أخرى لها صلة بذات النسق الحكيم، فتعين تغيير العنوان لأن الكتاب زاد عن الأبواب الخمسة التي وضعها الحكيم الهندي في الأصل؛ فاختار الوزير بزرجمهر اسمًا جديدًا جاوَر فيه بين لقبي ابني آوَى: «كاريراك وداماناك»، وهما شخصيتا ابني آوى ورد ذِكرهما في النسخة الأصلية كبطلين للفصل المعنوْن «الأسد والثور»، وهو الفصل الأكبر حجمًا بالكتاب، وفي عام ٥٧٠م، قام الراهب النسطوري بود بترجمة النسخة الفارسية إلى اللغة السيريانية القديمة، وكان عنوانها «كليلج ودمنج». لقد اختفت هذه الترجمة فلم يُعرف عنها خبر، وظلّت مجهولة حتى عثر الباحثون على نسخة منها كانت محفوظة بدير مدينة ماردين في الموصل، كتبها الشمّاس هرمز بن سمعان بالخط الإسطرنجيلي عام ١٥٢٦م.

ويرى البعض أن كتاب كليلة ودمنة أصله هندي استنادا إلى باب مقدمة الكتاب التي كتبها علي بن الشاه الفارسي، الواردة في نسخة المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة – ١٩٣٧م ... وفي هذه المقدمة يقول: إن كتاب كليلة ودمنة يعود لأصول هندية، وتمت كتابته باللغة السنسكريتية (الهندية) في القرن الرابع الميلادي، فيروي قصة بيدبا الفيلسوف مع ملكه الهندي دبشليم، والتي تقول بأن الإسكندر عندما غزا الهند عيَّن عليها ملكا من أتباعه، وواصل السير لاجتياح بلدان أخرى، لكن أهل الهند بمجرد أن غادرهم الاسكندر، خلعوا ذلك الحاكم الأجنبي، واختاروا دبشليم ملكا عليهم، لكن دبشليم غير سياسته بعد فترة قصيرة، وتحول من ملك عادل إلى طاغية، مما دفع الفيلسوف بيدبا إلى تقديم النصح للملك، وبعد أن استمع الملك إلى كلام بيدبا غضب وأمر بقتله وصلبه، ثم خفف الحكم واكتفى بحبسه، وبعد فترة أمر بإخراجه من السجن، وطلب منه إعادة كلامه عليه. فقام بيدبا بذلك، وكان دبشليم يستمع متأثرا، ووعده بأنه سيعمل بكلامه ثم أمر بفك قيوده... هذا الأمر كان بداية وضع الكتاب.

وبعد أن وضع بيدبا الكتاب ودونه باللغة الهندية (السنسكريتية)، تأتي مرحلة نقلة (ترجمته) إلى اللغة الفارسية (الفهلوية) على يد برزويه، فنجد في نسخة مكتبة المعارف المصرية سنة ١٩٤١، التي قام عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بكتابة التصدير لها، وحققها وكتب

مقدمتها الدكتور عبد الوهاب عزام... في هذه النسخة، يأتي بعد التصدير والمقدمة، «باب عرض الكتاب لعبد لله بن المقفع»، يليه «باب توجيه كسرى أنوشروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب»، ثم «باب برزويه الطبيب».

وبعد هذا الباب، تأتي أبواب الحكي في كتاب كليله ودمنة، وهي خمسة عشر بابا، أولها «باب الأسد والثور»، ويلي هذا «باب الفحص في أمر دمنة».. ثم «باب الحمامة المطوقة»... وتتوالى أبواب الكتاب، لننتهي بـ «باب الناسك والضيف».

وفي هذا الباب الذي يُختتم به الكتاب، يلخص الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم الغرض من كل ما رواه له من حكايات على مر خمسة عشر بابا، فيقول له: «لقد شرحت لك الأمور ولخصت لك جواب ما سألتني عنه، واجتهدت لك في رأيي، ونظرت بمبلغ فطنتي في التماس قضاء حاجتك، فاقض حقّي بحسن النية منك بإعمال فكرك وعقلك فيما وصفت لك فمن تدبر هذا الكتاب بعقله، وعمل فيه بأصالة رأيه، ثم فكر فيه، كان قِمنًا للمراتب العظام والأمور الجسام، والله يوفقك أيها الملك ويصلح منك ما كان فاسدا".

وهناك رأي آخر شكّك في ذلك كله ورأى بأن أصل الكتاب عربي، ومما يستند إليه أصحاب هذا الرأي الذي يقول بأن ابن المقفع هو من ألّف كتاب كليلة ودمنة، أن النسخة العربية هي النسخة الوحيدة التي بقيت

محفوظة بخلاف النسختين الهندية والفارسية اللتين فقدتا، حيث لم يُوّفق الباحثون منذ عصر ابن المقفّع حتى اليوم في العثور على نسخةٍ واحدةٍ هنديةٍ من هذا الكتاب، ولا حتى على النسخة الفارسية التي تُرجمت في ذلك الوقت إلى العربية مما يثير هنا بعض الأسئلة: هل ضاعت هذه النسخ الهندية والفارسية؟... وإذا كان ابن المقفع وجد نسخة منها ألا يستطيع غيره أن يجد مثلها؟

ويرى أصحاب هذا الرأي، أن قصة انتقال الكتاب من الهند إلى فارس، والقصص التي رويت على ألسنة الحيوانات، كل هذا من وضع عبد الله بن المقفع نفسه، ليبعد التهمة عنه كونه خاف على نفسه من الهلاك. فقد خاف على نفسه من القتل فكتبه على ألسنة الحيوانات واخترع قصة انتقاله من الهند إلى فارس ليبعد التهمة عنه، فقد كانت الحياة السياسية والاجتماعية كما رويت عن الحكيم الهندي بيدبا مع الملك دبشليم مشابهة لما كان هو عليه مع الخليفة المنصور، الذي كان يُعرف بقوة بأسه وشدته على من يخالفه، فكان ابن المقفع بحاجة إلى نصح الحاكم بشكل غير مباشر

من الصعب الانحياز إلى أي من الرأيين فيما يتعلق بأصل كتاب كليلة ودمنة، إلا أن ما يمكن أن نرجحه تماما، هو أن مخاوف عبد الله بن المقفع من الهلاك على يد المنصور كانت مشروعة تماما. ففي عام ١٤٢ هجرية أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بقتله، وقد أُشيع أنه قُتل بسبب

اتهامه بالزندقة، وهو اتهام باطل، ويمكن التدليل على بطلانه بكل سهولة، إنما قتل لسبب يتعلق بأنه لم يأخذ حذره في مؤلف آخر له، ذلك الحذر الذي توخاه في كتاب كليلة ودمنة.

أما الكتاب الذي نقدمه اليوم "للنشء العربي، فهو من المحاولات الرائدة لتقريب التراث العربي والعالمي لأذهان الشباب والطلائع، وهو من إعداد الكاتب الراحل "إبراهيم عزوز" وكان مفتشا بوزارة التربية والتعليم المصرية، وقدم كتبا عديدة للأطفال والناشئين، يقول عن هدفه من تقديم هذا الكتاب الذي يعتمد على تبسيط لغة وحكايات الكتاب الأصلي "وقد ساءني أن رأيت النشء يعرضون عن هذا التراث الخالد، ولا يصبرون على تلمس درره الغوالي، لبعد ما بينهم وبين بلاغة ابن المقفع. لهذا أخرجته في هذه الصورة الجديدة، التي تقرب حكمته، وتيسر فوائده، دون أن تمس جوهره، في لغة سهلة تلائم ذوق النشء. لعلي أقرب بينهم وبين ابن المقفع فيتجهوا إلى أصل الكتاب في مستقبل أيامهم".

وفي الكتاب عرض شائق لقسم من كتاب كليلة ودمنة، أعاد المؤلف كتابته في أسلوب سهل ممتع، وحوار رائع جذاب، يدفع القارئ إلى متابعة القراءة حتى ينتهي منها وهو مستمتع راض إلى أقصى الحدود، حيث بدأ الكاتب بعرض مقدمة "كليلة ودمنة" في أسلوب قصصي، ليعطي القارئ فكرة عن الكتاب، فتحدث عن غزو الإسكندر بلاد الهند، وثورة الشعب عليه، ثم تولى الملك الهندي دبشليم زمام الحكم، وغرور هذا الحاكم

وظلمه، مما دفع الفيلسوف بيدبا إلى أن يذهب إليه يوليه النصح، فيسجنه، ولكنه يندم على فعلته بعد ذلك ويكرم الحكيم بيدبا بأن يجعله وزيرا له يستشيره في كل أموره.

ثم يختار المؤلف قصتين مرتبطتين إحداهما بالأخرى، هما قصة الأسد والثور، وقصة "محاكمة دمنة" وهما تعرضان عاقبة المكر والخداع والحقد، وأن الكاذب المحتال لابد أن ينال في النهاية جزاء ما اقترفت يداه، وفي ثنايا القصة عدد كبير من القصص القصيرة ترد على لسان الأبطال من الحيوانات، تهدف كل قصة منها إلى حكمة أو عظة أو فكرة يريدها المؤلف، ولكنها مع ذلك متتابعة تتابعاً شائقاً، ومعروضة عرضاً جذاباً، لا يجعل القارئ يحس باستطراد ممل، ولا يقل من اهتمامه بمتابعة قراءة الكتاب.

أحمد رجب

مقدمة المؤلف

كليلة ودمنة كتاب الحكمة السامية، والبلاغة الرفيعة؛ وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي، وترجمه الفرس إلى لغتهم، ثم نقله إلى العربية عبد الله بن المقفع؛ فاستقبله المتأدبون ينهلون من حكمته، ويتأدبون بأدبه؛ فتخرجت به أجيال وأجيال، وطبقات من الأدباء تليها طبقات.

وقد ساءني أن رأيت النشء يعرضون عن هذا التراث الخالد، ولا يصبرون على تلمس درره، لبعد ما بينهم وبين بلاغة ابن المقفع. لهذا أخرجته في هذه الصورة الجديدة، التي تقرب حكمته، وتيسر فوائده، دون أن تمس جوهره، في لغة سهلة تلائم ذوق النشء. لعلي أقرب بينهم وبين ابن المقفع فيتجهوا إلى أصل الكتاب في مستقبل أيامهم.

والله أرجو أن ينفع به، ويحقق الغاية المرجوة منه.

إبراهيم عزوز

الفصل الأول

كان في بلاد اليونان القديمة مدينة كبيرة اسمها مقدونية، ظهر فيها ملك شاب، اسمه الإسكندر.وكان الإسكندر يريد أن يكون له ملك كبير جداً، يمتد من مطلع الشمس إلى مغربها، فخرج بجيوشه إلى مصر.

وكانت مصر في آخر حكم الفراعنة ضعيفة، وليست لديها جيوش قوية تدافع عنها، لأن أبناءها كانوا متفرقين متعادين، فملكها وأقام فيها نائباً عنه يحكمها في غيبته.

وسار إلى بلاد الفرس في الشرق، وحدثت بينه وبين ملك الفرس حروب طويلة، انتصر فيها الإسكندر، وأقام نائباً عنه في بلاد الفرس؛ ثم سار إلى بلاد الصين، التي كانت مشهورة في ذلك الوقت بالصناعة والعلم والحكمة.

وفي طريقه إلى بلاد الصين مر على بلاد الهند، التي كان يحكمها ملك قوي شجاع اسمه فور. فلما سمع فور ملك الهند بقدوم الإسكندر إلى بلاده، خاف أن يملكها كما ملك بلاد الفرس ومصر، فاستعد له أعظم استعداد، جمع الجيوش من كل مكان في بلاد الهند، وأعد الأسلحة، وجهّز الخيول والأفيال، وانتظر قدومه.

فلما قرب الإسكندر من فور وسمع بما أعده له وبما جهزه لاستقباله، عرف أنه أمام عدو قوي شديد، لا تغلبه القوة والجيوش، ولكن تغلبه الحيلة والمكر والدهاء.

وكان الإسكندر كلما فتح بلدا من البلاد جمع الماهرين من الصناع وأخذهم معه، لينتفع بهم في حربه. فطلب من الصناع والجنود والعمال أن يحفروا خندقا حول جيشه، حتى لا يستطيع فور وجنوده أن يصلوا إليه؛ ومكث يفكر في الحيلة التي تجعله يغلب فور، ويستولي على بلاد الهند، بدون تعب في القتال والحرب.

وبعد تفكير طويل، أمر الصناع أن يصنعوا تماثيل للجنود من النحاس، وأن يجعلوا كل تمثال قائما على بكرة مستديرة متحركة، وأن يحشوا جوف التماثيل بالنفط والكبريت، ويلبسوها ملابس الجند. ودعا إليه المنجمين، وأمرهم أن يبحثوا في كتبهم عن أسعد يوم يقاتل فيه فوراً وينتصر عليه.

ولما تم له كل ذلك، أرسل إلى فور رسولا يدعوه إلى التسليم والخضوع، ويقول له:

– إنك يا فور أمام الإسكندر الأكبر، أعظم الملوك؛ وقد تم لي النصر على بلاد اليونان ومصر وبلاد الفرس، ولم أخسر من الجنود إلا عدداً قليلاً.فخير لك ولبلادك أن تسلِم وتخضع، وسأجعلك ملكاً كما كنت، وأكتفي منك بالخراج والجزية.

فلما وصل الرسول إلى فور، وقرأ رسالة الإسكندر اغتاظ وثار، وقال للرسول:

– عد إلى سيدك، وأخبره أن بلاد الهند ليست كغيرها من البلاد التي فتحها، وإذا كان يريد أن يحفر القبور لنفسه ولجنوده، فليتقدم إلى قتالنا!

فأمر الإسكندر أن تُشعل النار في النفط والكبريت الذي حُشيت به التماثيل، وأن تُدفع التماثيل أمام الجنود. وهجم على فور وجيوشه.

فثارت الفيلة، وهجمت على التماثيل، ولفَت خراطيمها حولها، تريد أن ترفعها وتضرب بها الأرض، ولكن النار أحرقت خراطيم الفيلة، فذعرت الفيلة وفرَت بدون نظام، وسقط من كان فوقها من جنود فور، ووقعت في صفوفهم الاضطرابات، وقُتِل منهم عدد عظيم بسيوف الأعداء، وأقدام الفيلة، التي كانت تجري مذعورة في كل مكان.

ولما رأى الإسكندر ذلك، أراد أن يُعجل بنهاية فور، فصاح قائلا:

– يا فور، ليس من الشجاعة أن تعرَض جيوشك للقتل والفناء، وتبقى أنت سالما صحيحا! فاخرج إلي لأبارزك. ومن انتصر منا على خصمه، صار الأمر له في بلاد الهند.

فلما سمع فور هذا القول من الإسكندر، قال:

– لقد قلت كلاما جميلاً، وإنني كنت أتمنى ذلك وأريده.

وهجم كل منهما على خصمه، وصارا يتقاتلان مدة طويلة من النهار، ولا يجد أحدهما فرصة لقتل الآخر.

وفي النهاية لجأ الإسكندر إلى الحيلة.. فنظر إلى جيوش فور، وصاح صيحة فرح عظيمة، كأن شراً كبيراً أصاب هذه الجيوش.

وما كاد فور يسمع هذه الصيحة، حتى التفت إلى جيوشه، ليعرف ماذا حدث لها. وعندئذ أسرع الإسكندر وضربه بسيفه ضربة قسمته نصفين.فلما رأت جيوش الهند هذه الخيانة، ثارت وهجمت على الإسكندر وجيوشه.

ولكن الإسكندر أسرع إليهم، وطمأنهم على بلادهم ومستقبلهم، ووعدهم كل خير، حتى هدأت نفوسهم، وعادوا إلى أماكنهم.

وبهذا انتهى القتال، وأقام الإسكندر في بلاد الهند زمنا يدرس شئونها، ويتقرب إلى أهلها.

* * *

وبعد مدة، اختار الإسكندر أحد قواده، وجعله ملكا على بلاد الهند، وأوصاه أن يحكم بينهم حكما صالحاً؛ وتركه وسار إلى بلاد الصين. ولكن الهنود لم يرضوا بحكم هذا القائد الأجنبي، فصبروا حتى بعد الإسكندر عن البلاد، وثاروا على هذا القائد، وطردوه من بلادهم.

واختاروا شاباً من أبناء الملوك السابقين، اسمه دبشليم، وجعلوه ملكا عليهم.

وكان دبشليم ملكاً قوياً شجاعاً، أراد أن يعيد إلى بلاد الهند مجدها وسيادتها، ويزيل آثار الاحتلال التي تركها الإسكندر فيها. فقام بعدة حروب مع الأمراء والملوك الذين خرجوا في بلاد الهند، وفرقوا وحدة الهنود، وكان ينتصر في كل حرب يشنها على أعدائه. فأحبته الرعية وأخلصت له؛ ولكنه اغتر وتكبّر بسبب هذه الانتصارات، وبدلا من أن يُحسن إلى رعيته، ويعترف بفضلهم عليه، أغلظ لهم، وأساء إليهم، وقسا عليهم قسوة لم يعرفوا لها مثيلا من قبل.

فتأسف أشراف الدولة وحزنوا، وعرفوا أنهم لم يُحسنوا اختيار ملكهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا معه، لأنه كان يجمع حوله الجنود والقوة والسلاح، ومكث على ذلك دهراً طويلاً، لا تزيده الأيام إلا سوءاً وشدة، ولا تزيد الرعية إلا ذلاً وهواناً.

الفصل الثاني

وكان في زمانه، رجل حكيم فيلسوف، اسمه بيدبا، من رجال الدين الذين يُسمون البراهمة؛ وكان بيدبا مشهوراً بالعقل والفضل، يستشيره الملك في الأمور، ويستشيره كبار الرجال فيما يريدون أن يفعلوه. وكان لبيدبا تلاميذ كثيرون، يحضرون مجلسه، ويتعلَمون علومه. فلما رأى ما وصلت إليه حال الملك، وحال الرعية، جمع تلاميذه ليستشيرهم، وقال لهم:

– لقد عرفتم كل شئ من أخبار هذا الطاغية المسمى دبشليم! فما رأيكم فيه؟!

فقال أحد التلاميذ:

– وكيف تطلب رأينا وأنت أستاذنا ومعلمنا، ولا رأى لنا مع رأيك، ولا تفكير بعد تفكيرك؟!

فقال بيدبا:

– ما جمعتكم لتسمعوني هذا الكلام! بل جمعتكم لتفكروا معي في أمر الملك! إن الإنسان وحده لا يستطيع أن يصل إلى رأي صحيح سديد، مهما يكن عقله كبيراً، وفكره صائباً، فلابد من المشورة، ولا مفر من تفكيركم معي في الأمر!

فأجابه تلميذ ثانٍ:

– الرأي عندي يا سيدي الأستاذ أن ننتشر في البلاد، وندعو الناس سراً للتخلص من هذا الملك.

فقال بيدبا:

– ليس هذا العمل من الحكمة والعقل، وقد نجلب به على أنفسنا الهلاك والقتل إذا عرف الملك بعض أخبارنا؛ ولو فعلنا ما تقول، لكنا أقل ذكاءاً وعقلاً من البهائم، التي تُجنب أنفسها الوقوع في الضرر.

فقال تلميذ ثالث:

– هذا حق يا سيدي الأستاذ! وليس من الممكن أن ندعو الناس في كل هذه البلاد الواسعة، ولا يعلم الملك بخبرنا، وله جواسيس في كل مكان! ولكن الرأي عندي أن نبحث لأنفسنا عن بلد آخر، نقيم فيه بعيدين عن دبشليم، منقطعين لعبادتنا وعلومنا؛ فقد قال العقلاء من قبل "لا يحسن بالإنسان العاقل أن يُقيم في بلد طيب جميل، وهو يجاور فيه أسدا أو ثعبانا، لأنه لا يأمن على نفسه أن يصيبه أذى الأسد أو الثعبان، ولا ينفعه جمال المكان." ودبشليم أشد بطشاً وخطراً من الأسد والثعبان، فخير لنا أن نترك هذه البلاد، إلى بلاد غيرها بعيدة عن مفاسده وشروره.

فلما سمع بيدبا هذا الرأي، ظهر في وجهه الأسف والحزن، وقال:

– كلا.. كلا! إن الحكماء والعلماء لا يعيشون لأنفسهم، ولا يطلبون الحياة لأنهم يرغبون فيها، ولكنهم يعيشون لينفعوا غيرهم من الناس، ويدفعوا عنهم الظلم، ويُرشدوهم إلى طريق الخير.وإذا هربنا من وجه هذا الملك الظالم، كنا قد أسأنا إلى أنفسنا، وإلى إخواننا من أبناء الهند، لأننا لم نقُم بالواجب علينا في الإرشاد والإصلاح، ونظر إلينا الجُهَال باحتقار واستهزاء، وكان من حقهم أن يحتقرونا، لأننا هربنا من المعركة مع الملك، ولم نقف بجانبهم وننصرهم عليه.

فقال تلميذ رابع:

– ولكن ماذا نفعل، ونحن لا نملك قوة نصدُ بها أذاه؟!

فأجابه بيدبا:

– إن الضعيف قد يملك بحيلته ما يعجز عنه القوي بقوته، وقد استطاعت القبرة – وهي الطائر الضعيف– بحسن حيلتها، أن تثأر لنفسها من الفيل القوي الضخم.

فقال التلاميذ:

– وكيف كان ذلك؟

فأجاب بيدبا:

– زعموا أن قبرة، صنعت لنفسها عشا تبيض فيه على الطريق؛ وكان فيل ضخم يسير كل يوم في هذا الطريق، ليشرب من النهر القريب

منه.وفي ذات يوم، مر الفيل كعادته في الطريق، فداس العش برجله، وهو لا يشعر به، فكسر بيض القبرة وقتل فراخها.ورجعت القبرة إلى عشها فرأته محطما مخربا، ورأت آثار أقدام الفيل، فصاحت وبكت، واشتد حزنها وألمها؛ ولما هدأت ثورتها، ذهبت إلى الفيل، وحطَت على رأسه وهي تبكي، وقالت له:

– أيها الفيل، لم هشمت بيضى، وقتلت فراخي، وأنا في حمايتك وجوارك، والجار القوي لا يصح أن يؤذي جاره الضعيف؟! هل فعلت ذلك لأنك قوي، وأنا ضعيفة؟!

فأجابها الفيل باحتقار:

– عجبا لك أيتها القبرة الحقيرة!! أتحاسبينني على عمل عملته؟! نعم، لقد فعلت ذلك لأنك ضعيفة وأنا قوي!!

سمعت القبرة هذا الرد الجاف الخشن من الفيل فنسيت فراخها وعشها، وصارت تفكر في الانتقام منه، وطارت إلى جماعة الطير، فلما وصلت إليهن، شكت لهن ما أصابها من ظلم الفيل، وبكت طويلا أمامهن، حتى عطفن عليها، وسألتها ملكتهن قائلة:

– وما الذي نستطيع أن نفعله مع الفيل، ونحن ضعيفات، وهو أعظم الحيوانات قوة؟!

فقالت القبرة:

– أريد أن تذهب الغربان معي إلى الفيل، وتنقر عينيه، حتى لا يُبصر بهما شيئا؛ وبعد ذلك أحتال له حيلة أخرى.

أسرعت الغربان إلى الفيل، وطار بعضها فوق رأسه يمينا وشمالا، وصار بعضها يرفرف بجناحيه، ويقترب منه مرة ويبتعد مرة أخرى، حتى ارتبك الفيل وتحير، فهجمت عليه الغربان، وأخذت تنقر عينيه حتى عمى، وظل في مكانه واقفا، لا يستطيع أن يفارقه إلى مكان آخر.

* * *

فلما رأت القبرة ذلك، لم تكتف به، بل ذهبت إلى جماعة الضفادع، وشكت إليها ما فعله الفيل بفراخها وعُشها، وطلبت منها المساعدة، فقالت الضفادع:

– وماذا نستطيع أن نقدمه إليك من المساعدة؟

فأجابت القبرة:

– أريد منكن أن تذهبن معي إلى المكان المنخفض القريب من الفيل، وتصحن فيه كما تصحن في الماء.

سارت الضفادع مع القبرة، حتى وصلت إلى مكان منخفض بالقرب من الفيل، وأخذت تنق وتضج وتصيح، كما تفعل بالقرب من الماء.وكان الفيل قد عطش عطشاً شديداً، لأنه منذ فقئت عيناه لم يشرب، فاغتر

بنقيق الضفادع، وظن الماء قريباً منه، وسار إلى مكان الصوت، فوقع في المنخفض ولم يستطع الخروج.

وجاءت القبرة ترفرف على رأسه وتقول له:

– أيها الظالم المستبد، هل عرفت الآن أن الحيلة تعمل ما لا تعمله القوة؟!

ولما وصل بيدبا إلى نهاية هذه القصة، التفت إلى تلاميذه وقال لهم:

– هيا يا إخواني العقلاء، فكّروا معي فيما يجب عمله، لندفع عن البلاد شر هذا الملك الطاغية المستبد!

فقال أكبر تلاميذه:

– أيها الفيلسوف الفاضل، والحكيم العاقل، إن رأينا بجانب رأيك عديم القيمة والنفع، ولكن الناس قالوا – وقولهم حق– إن الذي يستحم في الماء مع التمساح يعرض نفسه للهلاك، وهو وحده المسئول عن الخطر الذي يصيبه؛ ومن يخرج السم من أنياب الثعبان ثم يبتلعه ليجربه، فإنه يجني على نفسه، وعليه هو ذنبه، وليس على الثعبان ذنب في هلاكه.وهذا الملك متكبر مغرور، لقلة تجاربه، وحداثة سنه وصغره، وهو أشد فتكا من التمساح والثعبان. ونحن نخاف عليك وعلى أنفسنا إذا دخلت عليه وحاولت إصلاحه وإرشاده، وأشرت عليه بشئ لا يحبه ولا يرضاه.

فقال بيدبا:

– أيها التلاميذ، شكراً لكم، لقد قلتم فأحسنتم القول، وعرفت من كلامكم مقدار حبكم لي، وحرصكم على سلامتي، وخوفكم عليَ وعلى أنفسكم، ولكني عزمت على لقاء الملك، والعاقل إذا عزم على أمر يجب أن ينفذه، وأن يسير فيه إلى النهاية، وستعرفون حديثي مع الملك، وما يكون بيني وبينه من الحوار والمناقشة، فإذا علمتم بخروجي من عنده، فاجتمعوا إلي، لأخبركم بكل شئ كان.

ثم إن بيدبا، اختار يوماً للدخول على الملك، ولبس ملابس الكهَان والحكماء، وسار إلى القصر، ولما وصل طلب الإذن بالدخول عليه.

أذِن الملك لبيدبا بالدخول، فلما دخل سجد له، ووقف صامتاً لا يتكلم، خاشعا لا يرفع رأسه، ففكر الملك في سكوته وخشوعه، وقال في نفسه:

– إن هذا الحكيم العاقل لم يقصدنا إلا لواحد من أمرين، إما لأنه في حاجة إلى مال ينفقه ويصلح به حاله، ويستعين به على الحياة، وإما لأنه وقع عليه ظلم من أحد الحكماء، فلم يقدر على دفع الظلم عن نفسه، فجاء إلينا لنرد عنه الظلم، ونخلصه منه!

ومن لم يستح من الحكماء والعلماء، ويكرمهم ويحسن إليهم، ويعظم قدرهم، كان أحمقاً جاهلاً، قليل العقل، لأن الحكماء يستغنون عن الملوك بعلمهم وحكمتهم، ولا يحتاجون إلى شئ مما في أيدي الملوك من الجاه

والمال، أما الملوك فإنهم لا يستغنون عن الحكماء، فهم دائما محتاجون إلى عقلهم وحكمتهم، ليستعينوا بهما على سياسة الرعية، وتدبير أمورها.

ثم نظر إلى بيدبا وقال:

– نظرت إليك وأنت ساكت خاشع يا بيدبا، فقلت: إن بيدبا لا يدخل علينا إلا لأمر خطير، فإن كان في حاجة إلى مال، أعطيناه ما يُرضيه، وإن كان شاكياً من ظلم وقع عليه، رفعنا عنه هذا الظلم، وإن كان يطلب للرعية شيئا يصلحها وينفعها، بحثنا طلبه، ونفّذنا ما ينفع منه، لأن الحكماء يشيرون بالخير دائماً.

أما إن كان قد اغترَ وركب رأسه، وأراد أن يتدخل في أمور الملك الخاصة، التي لا يصح لأحد أن يتدخل فيها، فإني سأُنزل عليه العقوبة التي يستحقها بسبب هذا التدخل.

* * *

فلما سمع بيدبا هذا الكلام من الملك، ورأى في وجهه الابتسام والرضا، فرح وسُر واطمأن قلبه، وسجد للملك مرة ثانية، ثم قال:

– أطال الله بقاء مولاي الملك، وحرسه، وصان ملكه، ومنحه التوفيق في كل شأن من شئونه.. إنك يا مولاي قد شرفتني وأكرمتني، وأعليت منزلتي وقدري، حينما أذنت لي بالدخول، وسمحت لي بالوقوف أمام حضرتكم الشريفة؛ وقد دعاني إلى طلب الإذن على مولاي الملك،

نصيحة صادقة، أردت أن أخصه بها، ولا أطلع أحداً غيره عليها، فإن قبلها مني وسمعها وعمل بها، كان في ذلك الخير له وللرعية، وإن رفض أن يسمعها أو يعمل بها، رجعت آسفاً، وكنت أديت الواجب علي لمولاي الملك الذي أحبه، وأخلص له وأطيعه.

فظهر الضجر والضيق في وجه الملك، ولكنه كتم ذلك في نفسه، وقال:

– قل يا بيدبا ما تحب، وسأسمع كلامك، وأُجازيك على قدره، فإن ظهر صدق كلامك وإخلاصك كان لك الخير، وإن ظهر خبثك وخداعك وغرورك، لقيت ما تستحق من الجزاء.

فقال بيدبا:

– إني فكرت يا مولاي طويلاً، فوجدت أن الفرق بين الإنسان والحيوان ينحصر في أربعة أشياء، يتصف بها الإنسان، ولا يتصف بها الحيوان؛ فمن كان متصفاً بهذه الصفات الأربع، كان إنساناً كاملاً، ومن نقص صفة منها أو أكثر، كان قريباً من الحيوان.

فقال الملك:

– حسن! ما هذه الصفات التي تفرِق بين الإنسان والحيوان؟!

– إن الإنسان لا يكون إنساناً كاملاً يا مولاي، إلا إذا كان عاقلاً، عادلاً، حكيماً، عفيفاً، وجميع صفات الإنسان الأخرى ناتجة من اتصافه

بهذه الصفات الأربع السابقة؛ لأنه إذا كان عاقلاً، أحب الحلم والتواضع؛ وإذا كان حكيما، استطاع بحكمته أن يحصِل العلوم، ويُحسن التفكير في الأشياء؛ وإذا كان عادلاً، رغب في الصدق مع الناس في قوله وعمله؛ وإذا كان عفيفاً لم تنظر عينه إلى شئ في يد غيره، ولم تحرص نفسه على حب المال، فلا يبخل بشيء يرى الناس محتاجين إليه، بل يكون كريماً جواداً، كثير العطاء والجود؛ ومن اتصف بهذه الصفات كلها، لم يتغير حاله، إذا اغتنى أو افتقر، وإذا عز أو ذل؛ وأحق الناس بهذه الصفات هم الملوك يا مولاي الملك.

وحينما انتهى بيدبا إلى هذا القول، عرف الملك ما يريد أن يقوله، وزاد الضجر في وجهه، ولكنه صبر وقال له:

– أهذا ما تريد أن تقوله يا بيدبا؟ أبقي عندك شئ آخر؟

فقال بيدبا:

– أسعد الله مولاي الملك، وحفظه وأبقاه! إن اتسع لي صدر مولاي، قلت ما جئت من أجله!!

فقال الملك في ضجر:

– قل واختصر القول، فليس لدينا وقت يسمح بسماع الكلام الطويل!

فقال بيدبا:

– إنك يا مولاي، ورثت ملك آبائك وأجدادك العظام، الذين طال حكمهم، وعز سلطانهم، وبنوا القلاع والحصون؛ ولكن ذلك كله لم يخرجهم من حدود الحلم والعدل، فأحسنوا إلى الرعية، وأعطوا كل إنسان حقه، ولهذا أحبتهم الرعية، وكثر في أيامهم الخير، وعم الناس النفع؛ وأنت أحق الناس يا مولاي بأن تقتدي بآبائك وأجدادك، فتحسن إلى رعيتك، وتترك الظل، وتألف العدل، حتى يبقى لك الذكر الحسن، وتملك القلوب، ويطول حكمك، ويكثر الخير في أيامك. وهذه نصيحة قدمتها إليك، وأنا لا أطلب عليها أجراً، وأعظم أجر لي أن تنفذ ما سمعت مني!

فلما فرغ بيدبا من كلامه، ثار الملك وغضب، وقال:

– ما هذا أيها الجاهل الأحمق؟! لقد تكلمت بكلام وقح، ما كنت أظن أن أحداً في مملكتي يتكلم به أمامي، إن إكرامي لك، جعلك جريئا علي!! أتجرؤ أنت أيها الإنسان الحقير، الصغير الشأن، على أن تُسمعني هذا الكلام، وتصفني بالظلم والاستبداد، ومخالفة سنة آبائي وأجدادي؟! إن أقل ما أصنعه بك أن أقتلك، حتى تكون درساً نافعاً لكل من تحدثه نفسه أن يسمعنا مثل كلامك.

وصاح بالحجاب:

– خذوا هذا الأحمق، واقتلوه واتركوا جثته للسباع والطير.

خرج الحجاب يسحبون بيدبا بعنف واحتقار، وما كادوا يبتعدون به، حتى هدأت نفس الملك قليلا، فأرسل من يخبرهم بعدم قتله، ويطلب إليهم أن يُلقوه في السجن.

* * *

دخل بيدبا السجن، وهو راض مستريح النفس، لأنه قام بما يجب عليه من نصيحة الملك الظالم، والدفاع عن الرعية، ثم احتال وطلب تلاميذه، فوجدهم قد هربوا جميعا، لما سمعوا خبر سجنه، فالتمس لهم العذر وصبر على ما أصابه.

وفي ذات ليلة، أصاب الملك أرق شديد، فلم ينم ولم يسترح، فخرج إلى حديقة قصره، ونظر إلى السماء، وصار ينتقل من فكرة إلى فكرة، حتى تذكر بيدبا..

فقال في نفسه:

– كيف صنعت هذا مع بيدبا؟! لقد دخل عليّ ناصحاً مخلصاً، فاستقبلته أسوأ استقبال، وجازيته شر جزاء!! لقد كنت أنا الأحمق الجاهل، لا هو، وشر الملوك ملك يرفض النصيحة، ويعاقب الناصح الأمين.

* * *

ودعا من فوره حاجباً، وأمره أن يذهب ليُحضر بيدبا، فلما وقف بيدبا أمامه سجد له وشكره، ودعا له بطول العمر والتوفيق، فأكرمه الملك، واعتذر إليه، وطلب منه أن يعيد عليه نصائحه الغالية.

ولما فرغ بيدبا من نصائحه، أمر الملك أن تُكتب هذه النصائح بماء الذهب، وأن يلبس بيدبا حلة من حلله الفاخرة، وأن يكون وزيره الدائم، الذي يعمل بنصيحته في كل أمر.

اعتذر بيدبا من قبول منصب الوزارة، ولكن الملك لم يقبل منه العذر، وفي الصباح وضعوا على رأس بيدبا تاجاً، وأركبوه حصاناً، وساروا به في حفل كبير مع رجال الدولة، كعادة الهنود مع كل وزير.

ورجع بيدبا من موكبه، وجلس مع الملك يُصرَف شئون، ويحكم بين الناس بالعدل، وجمع تلاميذه وأكرمهم، واستعان بهم في الحكم.

وكان الملك يطلب منه الرأي في كل مسألة من مسائله الخاصة، كما يستشيره في مسائل الحكم كلها.

الفصل الثالث

وفي ذات ليلة قال الملك له:

– قد سمعت الناس يقولون "إن الإنسان الكذاب المحتال، يستطيع بكذبه واحتياله، أن يُفرَق بين الصديقين، ويُفسد الصداقة بينهما، حتى يصبح كل واحد منهما عدواً للآخر." فهل الناس صادقون فيما يقولون؟!

فقال بيدبا الفيلسوف:

– نعم يا مولاي الملك، الناس صادقون فيما قالوا! والحكايات والقصص التي تبين خطر الكذاب المحتال كثيرة مشهورة.

فظهر الإهتمام والألم على وجه الملك، وقال:

– أسمعنى أيها الفيلسوف العاقل قصة من هذه القصص، لأتخذ منها درساً نافعاً، فإني أخشى أن يُفسد المودة بيني وبين أصدقائي أحد الكذابين المحتالين.

فقال بيدبا:

– كان في أرض دستاوند من بلاد الهند رجل هرم، عاش حتى كبر وشاخ وضعف، وكان له ثلاثة أولاد، لم يتعلموا حرفة يكسبون بها قوتهم

ويرتزقون منها.فلما رآهم يُسرفون في ماله، وينفقونه بغير حساب، في أشياء لا يصح الإنفاق فيها، جمعهم وقال لهم:

– يا أولادي، إن حياتي بينكم قصيرة، وسأموت بعد وقت قريب، وقد كنت أسعى لكم، وأجد في طلب المال من أجلكم؛ فيجب أن تعتمدوا من هذا الوقت على أنفسكم، واعلموا يا أولادي أن كل إنسان في حياته يطلب ثلاثة أشياء، يطلب أن يكون غنيا صاحب مال؛ وأن يكون محترما بين الناس، ذا منزلة وجاه فيهم؛ وأن يكون في الآخرة مقبولا من الله، مرضيا عنه، عظيم الأجر والثواب من ربه؛ ولكن هذه المطالب لا تتحقق للإنسان إلا إذا سعى وجد واجتهد في كسب المال من طرقه الشريفة، فلا يجمع المال من ظلم، ولا غش، ولا سرقة، ولا حرام.

وإذا كسب المال واغتنى لا يبقى المال في يده إلا إذا حافظ عليه، وحرص على زيادته ونموه، أما إذا كسب المال الحلال، وأهمل صيانته وحفظه، فإنه يطير من يده، ويعود فقيراً كما كان.

ولا يكون الغني محترماً بين الناس، مرضيا عنه من الله، إلا إذا أنفق من هذا المال الذي جمعه ونمّاه على الأهل والأقارب والأصحاب، وفي جميع وجوه الخير.

أما إذا جمع المال، وبخل به على نفسه وعلى الناس، يغضب الله به؛ ومع هذا البخل لا يأمن أن يضيع ماله بالحوادث الكثيرة التي تحدث في

هذه الدنيا، فقد يسرقه اللصوص، وقد يحترق أو يغرق، أو تبتلعه الأرض بفعل الزلازل والبراكين.

فلما سمع الأولاد هذا الكلام من أبيهم، صدَقوه وعرفوا أنه حق، ووعدوا أباهم أن يُغيروا خطتهم في الحياة، وأن يعتمدوا على أنفسهم في كسب العيش.

* * *

وبعد أيام، ركب كبيرهم عجلة يجرها ثوران، يسمى أحدهما شتربة، ويسمى الآخر بندبة؛ وسار مع بعض خدمه وغلمانه، يريد أن يسعى في الأرض لطلب الرزق الحلال. وبينما هو سائر، مر في طريقه بأرض لينة كثيرة الطين والوحل، فغاصت فيها أقدام شتربة، ولم يستطع السير، فنزل صاحبه من فوق العجلة وحاول هو وخدمه وغلمانه أن يشدوه، ويخرجوه من الوحل، فلم يقدروا.

فقال لأحد الخدم:

– انتظر أنت مع شتربة، حتى تجف الأرض قليلا، ويستطيع أن يتخلص من وحلته، ثم الحق بنا.

وتركهما وسار في طريقه، وأخذ الخدم والغلمان يجرون العجلة من جانب، وبندبة يجرها من الجانب الآخر. وبعد أيام، قلق الخادم، وتضايق كثيرا من وجوده مع شتربة في هذا المكان الذي ليس فيه أحد، فتركه وسار

خلف سيده، حتى لحقه في الطريق، فلما سأله سيده عن شتربة، ادعى أنه مات!

ولما سمع السيد خبر موت شتربة تألم وحزن، فقال له الخادم، ليخيفف حزنه وألمه:

– إن هلاك شتربة يا سيدي، قضاء وقدر من الله، ولا يستطيع أحد أن يهرب ويفر من قضاء الله وقدره، ولولا أن الله أراد هلاكه، ما خرجنا في هذا الوقت من السنة، ولا سرنا في هذا الطريق الذي يكثر فيه الوحل والطين.

فقال خادم آخر:

– صدق يا سيدي فيما قال، وما حدث لشتربة يذكرني بقصة رجل أراد أن يهرب من القد، فكان هروبه سبب شقائه وهلاكه، وفي النهاية نفذ فيه القدر كما أراد الله..

فقال السيد

– إنني حزين على شتربة، لأنه كان ثورا قوياً نافعاً، وقد طالت صحبته لي، وربيته منذ كان عجلاً صغيراً، فأخبرني بقصة هذا الرجل، لعلي أجد فيها تسلية وتصبيراً لنفسي عن شتربة.

فقال الخادم:

– يحكى أن رجلاً سار في طريق كثير الوحوش والسباع، وبعد ما قطع مسافة من الطريق، رأى من بُعد ذئباً شرساً، يلمع الشر من عينيه، فخاف على نفسه، وعرف أن الذئب إذا لحقه أكله ولا شك، وتلفت حواليه، فرأى قرية خلف نهر؛ فقال في نفسه:

– سأجري إلى هذه القرية، وأستعين بسكانها على الخلاص من هذا الذئب.

ولكنه لما وصل إلى النهر، لم يجد عليه قنطرة، ولم ير فيه مركبا يعبر به، فتحير واشتد خوفه؛ ولما اقترب الذئب منه، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة، رمى نفسه في الماء، وكان لا يعرف العوم، ولا يحسن السبَاحة، فصاح بأعلى صوته:

– آه! آه! أنقذوني! سأغرق! أنقذوني! أنقذوني! سأغرق! سأغرق!!

وكان رجلان يسيران في الطريق بجوار النهر، فلما سمعا صياحه واستغاثته، أسرعا إليه، وألقيا أنفسهما في الماء، وسبحا حتى وصلا إليه، وأخرجاه من النهر، وبقيا معه حتى أفاق من إغمائه، فشكرهما وتركاه وانصرفا.

* * *

ثم نظر الرجل إلى هذا الشاطئ من النهر، فوجد بالقرب منه كوخاً مفتوحا، فقال في نفسه:

– سأذهب إلى هذا الكوخ، وأقضي فيه ليلتي، لأستريح من التعب والعناء، الذي أصابني من الغرق، وفي الصباح أعود إلى السير، وقد نجوت من الذئب ومن الغرق والحمد لله!

وما كاد يصل إلى الكوخ، ويُطل من ثقب فيه من الخلف، حتى رأى لصوصاً قد قطعوا الطريق على تاجر، وسلبوا أمواله، وجلسوا يُقسَمونها فيما بينهم. فخاف –إن هو دخل الكوخ– أن يلقى من اللصوص، مثل الذي لقيه التاجر منهم، فكتم نفسه، ومشى على أطراف أصابعه، حتى لا يشعروا به، وابتعد عن الكوخ.

ولما وصل إلى القرية، كان التعب قد اشتد عليه، حتى عجز عن السير، فأسند ظهره إلى حائط في الطريق، وجلس ليستريح في الظل، وقال:

– الحمد لله! فقد عميت عني أعين اللصوص، ولو رأوني لقتلوني، بعدما نجوت من الذئب ومن الغرق!

وراح في نوم عميق .. وإذا الحائط يسقط فوقه فيموت من ساعته.

فقال السيد:

– حقاً! إن ما يُقدره الله لابد أن يقع ويحدث، ولا يستطيع أحد أن يتخلص منه أو يهرب.

فلما وصل بيدبا إلى هذا الحد من القصة، نظر إليه دبشليم بسرور ورضا، وقال:

– أيها الفيلسوف العاقل، إن كل كلمة تقولها ذات نفع وفائدة، يستفيد منها المتعلم والجاهل، وإني لسعيد بصحبتك، أقدر فضلك وعقلك! وهل مات شتربة حقاً، كما أخبر الخادم سيده؟

فأجابه بيدبا:

– لقد زدتني يا مولاي، تشريفاً وتكريماً، فزادك الله كرامة وشرفاً! أما شتربة يا مولاي، فإنه بقي في الوحل، حتى جفَت الأرض قليلاً، وصلبت بعض الصلابة، فشد أرجله منها، وخرج من ورطته التي كان فيها. وكانت الأرض قد أخصبت، ونما فيها العشب والمرعى، فأقبل على ما فيها، يأكل ما يشتهى، ويرعى ما يُحب ويريد، وينتقل من مكان إلى آخر، حتى شبع وسمن، وكثر لحمه وشحمه، وشعر بالقوة تملأ جسمه.فأخذ يصيح ويخور خواراً عالياً، ويرمح ويجري في كل مكان.

وكان على مقربة منه غابةٌ فسيحة، فيها كثير من الوحوش والسباع، وفيها أسد عظيم شديد البأس والقوة، هو ملك هذه الغابة، والوحوش والحيوانات كلها رعية له، خاضعة لحكمه وسلطانه. فلما سمع الأسد خوار الثور، امتلأت نفسه خوفاً لأنه لم يكن سمع من قبل خواراً، ولا رأى ثوراً، فظن أن صاحب هذا الخوار أشد منه قوة، وأكثر شجاعة وبطشاً.

ومن هذا اليوم جلس في بيته لا يخرج منه، ولا يبرح مجلسه، وألزم الوحوش أن تحضر له غذاءه كل يوم.

* * *

وكان من الوحوش التي تقف على باب الأسد لخدمته، ثعلبان أخوان، أحدهما اسمه كليلة والآخر اسمه دمنه. وكان كل منهما ذكيا كبير العقل، وكان كليلة طيباً كريم الخلق، أما دمنة فكان خبيثاً مكاراً حقوداً.

فلما طالت إقامة الأسد في منزله، قال دمنة لأخيه:

– إني أتعجب من حال هذا الأسد، كيف استطاع أن يحبس نفسه في مكان واحد، وأن يرضى بأن نُطعمه ونغذيه، وهو الذي كان يطعم رعيته كلها، ويقدم للوحوش غذاءها كل يوم؟!

فقال كليلة:

– ولماذا تسأل هذا السؤال، وتدخل نفسك في الشئون الخاصة بمولاك الملك، وأنت خادم صغير، قليل الشأن والقيمة؟!

ألم تعرف أن الذي يتدخل فيما لا يُحسنه ولا يعرفه، يلقى ما لقيه القرد من الخشبة والنجار؟!

فقال دمنة ساخراً:

– إنك يا كليلة، ماهر في ذكر القصص والحكايات، التي تصد الناس عن طلب المجد والشرف! فماذا لقي القرد؟ اذكر قصته يا أخي وأرح نفسك. فقال كليلة:

– إني لا أذكر هذه الحكاية لأستريح، ولكني أذكرها لتجد فيها ما ينفعك؛ فقد رأى قرد ذات يوم نجارا يشق جذع شجرة، ويضع وتداً في الشق، حتى يسهل عمل المنشار، فأعجبه فعل النجار، وانتظر حتى دخل النجار بيته، وقام إلى المنشار فأمسكه، ووثب على الجذع، وصار ينشر.

وبينما هو كذلك، تدلى ذيله في الشق، وحدث أن الوتد سقط، بعد أن اتسع الشق، فانطبق الجذع على ذيله، فصاح وأغمى عليه، وظل على حاله، حتى عاد النجار من البيت، فرآه معلقا من ذيله في الجذع، فلم يرحمه، وإنما أخذ عصا وراح يضربه بشدة، حتى أسال الدم من جسمه؛ فكان الألم الذي لقيه من النجار أشد من الألم الذي لقيه من الجذع.

وقد أسمعتك هذه القصة، لأني أخاف عليك من عواقب التدخل في شئون الملك. ولست أنا ولا أنت، من المقربين إلى الملك، الذين يصح لهم أن يسألوه، ويتدخلوا في شئونه، ويشيروا عليه بما يعمله، وما يتركه، فما نحن إلا خادمان صغيران من خدم الملك!!

فقال دمنة:

– لقد سمعت العقلاء من الناس يقولون "من لم يركب الأهوال، لم ينل الرغائب"، ويقصدون بهذا القول أن يُبينوا أن وصول الإنسان إلى

رغباته في هذه الحياة، يكلفه المشقات، ويعرِضَه للخطر والهلاك. وأنا أفضل أن أعيش عظيماً يوماً واحداً، على أن أعيش صغيراً دهراً طويلاً، ولهذا أتحمل كل مشقة وتعب في تحقيق رغباتي؛ ولن أرضى بعد اليوم أن أعيش خادماً ذليلاً على باب الملك!!

فأجابه كليلة –وهو يائس من إصلاح تفكيره– قائلاً:

– وفقك الله إلى الصواب، وحقق لك الآمال!

الفصل الرابع

دخل دمنة على الأسد، وسلَم عليه وحيَاه، فقال الأسد لبعض الجالسين معه:

– من هذ ا؟ وما عمله في رعيتي؟

فقال المسئول:

– هذا خادمك دمنة، ابن خادمك ثعالة، وهو أحد الخدم الوافقين على باب مولاي الملك.

فقال الأسد:

– أهلا بك يا دمنة! كان ثعالة أبوك رحمه الله من المقربين عندي، المحبوبين مني، المخلصين لي؛ تعال، هل لك حاجة تريد قضاءها؟! فإنك صاحب حق علينا، لصداقتنا القديمة مع أبيك.

فقال دمنة:

– أعز الله مولاي الملك!! لقد جئت لأُعرف مولاي أني واقف على بابه، مستعد لتقديم خدمتي في كل وقت، وإن أبواب الملوك تحدث فيها أشياء تحتاج إلى عمل الصغير، كما تحتاج إلى عمل الكبير، ولكل شئ في

هذه الدنيا منفعة وفائدة، حتى العود المرمي في الأرض، قد ينفع في إشعال النار.

فلما سمع الأسد كلام دمنة، أعجب بعقله ولسانه، وعرف أنه قد ينفعه بذكائه ورأيه، فقال للجالسين معه:

– إن الرجل الذكي العاقل، يرفعه عقله، ويعلن عنه ذكاؤه، مهما اختفى بين الناس، فهو كشعلة الشمعة، إذا أملتها إلى أسفل، ارتفعت إلى أعلى.

وهذا دمنة، كان واقفا على بابنا بين الخدم والأتباع، وكان يظنه من ينظر إليه أنه جاهل غبي كغيره من الخدم؛ ولكن سؤاله أظهر عقله وذكاءه، وعرفنا قدره ونبوغه فهو يستحق منا التقدير والإعجاب والإحترام.

فتقدم دمنة إلى الأسد، وتناول قدمه وقبَلها، وقال:

– أسعد الله مولاي الملك وأكرمه وأعزه!! إن الملوك يا مولاي، يقربون إليهم من يجدون عنده النفع والإخلاص، وإذا قرَبوا واحدا، وجب عليه أن يبذل في خدمتهم كل ما يملكه ويقدر عليه، من القوة والرأي والوقت. وقد أظهرت رضاك عني يا مولاي، فأصبح واجبا عليّ أن أخدمك، وأن أبذل نفسي فداء لك!!

فقال الأسد:

– من أكبر أخطاء الملك وعيوبه، أن يُبعد الفضلاء من رعيته، ويقرِب الجهلاء والخبثاء، فإن ذلك يُضيع الدولة، ويعطل أعمال الرعية، وأنت يا دمنة أظهرت من الفضل والإخلاص والعقل، ما يجعلنا نسعد بقربك، ونرجو الخير منك لأنفسنا ولرعيتنا؛ فأنت من اليوم تدخل علينا، وتشير برأيك في كل أمر من أمورنا.

* * *

فرح دمنة أعظم الفرح، ورجع إلى أخيه كليلة، وأخبره بكل ما حدث بينه وبين الملك، وقال له:

– هل عرفت الآن أنني كنت على حق، فيما طلبته لنفسي؟! وهل عرفت أننا قضينا وقتاً من حياتنا في منزلة حقيرة، ما كان يصح لنا أن نبقى فيها يوماً واحداً؟!

فقال كليلة:

– لقد وصلت إلى الملك، وأظهر إعجابه بك!! ولكني مع ذلك أخاف عليك من صحبته، فإن صحبة الملوك كثيرة الأخطار، وقد شبَه العلماء العارفون الملك بالجبل الوعر، الذي يصعب طلوعه، والصعود فوقه، وفي قمته الثمار الشهية والفواكه الناضجة، والأحجار الكريمة،

والجواهر الغالية، وهو مع ذلك مسكن الوحوش والسباع، فالوصول إليه عسير شديد، والإقامة فيه أعسر وأشد.

* * *

أنس الأسد بدمنة، وصار كل يوم يزيده تقريباً، ويُظهر له رضا وعطفاً جديداً.

وفي ذات يوم، دخل دمنة على الأسد، فوجده وحيداً ليس معه أحد من حاشيته وجلسائه، فقال له:

– إني أراك يا مولاي الملك، قد حبست نفسك في مجلسك هذا، حتى أصابك الضعف والهزال، فلم هذا وما سببه؟

وقبل أن يجيب الأسد، خار الثور خواراً مزعجاً فارتبك الأسد، وانقطع عن الكلام، وظهر الخوف في وجهه، وعرف دمنة بذكائه كل ما حدث في نفس الأسد.

فقال له:

– أتخاف يا مولاي من صاحب هذا الصوت؟

– نعم يا دمنة، إني منذ وقت طويل، أسمع هذا الصوت المخيف، فتمتلئ نفسي هما وخوفا! لأني ما كنت أظن أن الله قد خلق بين الحيوانات، من هو أشد مني قوة وأعظم شجاعة! حتى سمعت هذا الصوت فعرفت أن صاحبه لابد أن يكون مثل الجبل ضخامة وقوة.

فقال دمنة:

– إن مولاي الملك ليس على حق فيما ظن وحسب! فليس كل صوت دليلاً على قوة صاحبه.وقد سمع ثعلب صوت طبل، كان معلقا على شجرة، وكلما هزتها الريح، ضربت أغصانها الطبل فارتفع صوته. فظن الثعلب أن هذا الصوت، ينبعث من جسم ضخم، كثير اللحم والشحم، وسار إليه وهو يُمَنِّيَ نفسه بأكلة شهية. ولما وثب عليه ومزَقه بعد تعب ومشقة، وجده فارغا، خاليا من كل نفع.

فنظر إليه بألم وقال:

– لعل أقل الأشياء نفعا، أعلاها صوتا وأضخمها جسما.

وقد ذكرت لك يا مولاي هذه القصة، لتعلم أننا لو وصلنا إلى صاحب هذا الصوت، لوجدناه أقل شأنا مما نظن؛ وإذا سمح لي مولاي الملك، ذهبت إليه، وعرفت خبره وحقيقته، ورجعت إليه سريعاً.

فوافق الأسد على رأيه، وأذن له أن يذهب، ليعرف الخبر، ويكشف حقيقة صاحب الصوت والخوار.

* * *

ولما ابتعد دمنة عن باب الأسد، فكّر الأسد في نفسه وندم وقال:

– ما أصبت في إرسال دمنة! ليتني لم أرسله، فإني لا أطمئن إليه، ولا أضمن أنه لا يخونني ولا يغشني، لأني ظلمته زماناً طويلاً، حينما تركته واقفا

على بابي، في منزلة حقيرة صغيرة مع الخدم.فقد يكون دمنة حاقداً عليّ، بسبب هذا الظلم الذي لحقه مني، وربما أعان عدوي عليّ، أو ذكر عيوبي وضعفي أمامه، أو وجده أقوى مني، فرغب فيه وأقام معه.

ثم وقف الأسد في حيرة وارتباك، ومشى خطوات إلى الأمام، ونظر بعيداً، فوجد دمنة قادماً إليه.فطابت نفس الأسد، وهدأت وساوسه، ورجع إلى مكانه وجلس فيه، كأنه لم يحدث منه شيء.

دخل دمنة على الأسد فاستقبله قائلاً:

– ماذا صنعت؟ ماذا رأيت؟

فقال دمنة:

– أعز الله ملك مولاي، رأيت ثوراً، هو صاحب هذا الخوار.

– وما قوته؟ وما بأسه؟

– لا قوة له ولا بأس يا مولاي!! وقد حاورته وجادلته، واقتربت منه، كأنني نديده، ولم أخف منه شيئاً، ولم أجد فيه ما يخيف أو يزعج.

– طبعا هو لم يظهر لك قوته، لأنه رآك صغيرا ضعيفا، ولو رآك ذا قوة وبطش، لرأيت منه شيئا غير ما رأيت، وإنه ليشبه الريح العاصفة، التي تمر فرق العشب والمرعى، فلا تحدث به ضرراً، ولا تصيبه بأذى، حتى إذا وصلت إلى الأشجار الضخمة عصفت بأغصانها، وكسرت سيقانها!!

– لا.. لا يا مولاي، إنك عظمت من شأن هذا الثور، آكل الحشيش والعشب، وهو لا يستحق هذا التعظيم! ولو شئت أن آتيك به طائعاً ذليلاً، يخدمك ويخلص لك، لجئتك به كما تحب وتهوى.

– لا شيء أحب إلي من ذلك، فافعل ما تريد!

* * *

دخل دمنة على الثور، ونظر إليه بكبر، وخاطبه بعدم اهتمام، وقال:

– أيها الثور، إن مولاي الملك غاضب عليك أشد الغضب، لأنك أقمت في هذه الأرض التي يملكها، بدون إذن منه، ولم تقدم إليه الطاعة، ولم تظهر له الخضوع.وقد أرسلني إليك، لأدعوك إلى مجلسه، ووعدني أن يعفو عنك إذا أنت سرت معي إليه، وقبلت الأرض بين يديه، وأظهرت له الخضوع والاحترام.

فنظر الثور إلى الثعلب بغرور وكبر، وقال:

– من هو مولاك الملك الذي أرسلك إلي؟ وأين يقيم؟ وماذا يريد مني؟

– هو ملك السباع، وهو يقيم بتلك الغابة البعيدة، التي تقع عند نهاية الوادي، ومعه جيش كثير من السباع والأسود، وله رعية وخدم وأتباع، ولا يحدث شئ في هذا الوادي إلا بإذنه ورضاه، وما أنا إلا خادم صغير جداً من خدمه، وجندي من جنوده.

* * *

ما كاد الثور يسمع من دمنة كلمة "ملك السباع" حتى ارتعد جسمه، واصفر وخاف، وضاقت الدنيا في وجهه، وقال في نفسه:

– جاءك الموت يا شتربة، بعد ما نجوت من الوحل والطين، ماذا أفعل الآن؟ هل أنطح هذا الثعلب بقرني وأقتله؟ هل أطير إلى الناحية الأخرى من الوادي، لعلي أجد إنساناً يطمع فيّ، فيأخذني وينجيني من السباع، ومهما يكلفني من الحرث والدراس فإن ذلك أهون وأخف من الموت؟! هل أبحث عن مكان أختفي فيه؟

آه! آه إن كل ذلك لا ينفعني ولا ينجيني من الأسد، وسوف يجعل لحمي طعاما شهيا له ولأعوانه وجنوده!!

وما كاد شتربة يفرغ من حديث نفسه، حتى أخفى خوفه وهمه، ونظر إلى الثعلب وقال له:

– كلا! لن أذهب معك!! فارجع إلى سيدك ومولاك، وأخبره أن يحضر هو إليّ إن شاء وسأدافع عن نفسي أشد دفاع، وقد خلق الله لي قرنين قويين لأدافع بهما عن نفسي، وقد جاءت ساعة الدفاع.

فلما سمع دمنة هذا القول، رأى أن التهديد لا ينفع مع شتربة، فلجأ إلى الحيلة والمكر، وقال:

– لماذا تعاند هذا العناد؟! ولماذا تفكر هذا التفكير الفاسد؟! إن مولاي الأسد يريد أن يجعلك من رعيته، وأن يكرمك كما يكرم كل فرد

من أفراد الرعية، ولو أنك ذهبت إليه معي، وأظهرت له الخضوع والطاعة، لعشت معه مكرماً معززاً؛ أما إذا ركبت رأسك وظللت تعاند، فإنه لن يحضر إليك، ولكنه سيرسل عدداً من الأسود والنمور والضباع والذئاب، يحيطون بك من كل جهة، فلا تعرف كيف تدافع، ولا تجد طريقا للهروب والخلاص.

فقال شتربة بعد تفكير:

– ولكنكم يا معشر الوحوش والسباع، تشتهون لحمي وشحمي، وترغبون دائما في أكلي، فمن يضمن لي السلامة إذا مشيت معك إلى الأسد؟ وقد يفترسني ذئب أو ضبع قبل أن أصل إليه!

فرح دمنة في نفسه، وانتفخ أمام شتربة وقال:

– إني أضمن لك السلامة، وأعطيك عهداً صادقاً أن تعيش مكرماً معززاً عند الأسد.

الفصل الخامس

وبينما كان هذا يحدث بين شتربة ودمنة، كان الأسد في مجلسه خائفاً حائراً مرتبكاً، تارة يقول في نفسه: إن دمنة أمين مخلص، فهو لا يغشني ولا يخدعني، وتارة يقول: إن الثعالب أصحاب مكر وخداع، ودمنة واحد منهم، وقد يتفق مع الثور ويطلعه على سري وموضع ضعفي، ويحضر معه لقتالي والاستيلاء على عرشي!

لم تطل حيرة الأسد كثيراً، فقد رأى دمنة يقبل من بعيد، ومعه حيوان أحمر اللون، ضخم الجسم، كبير القرنين، ولكنه يسير في خضوع وخوف، ويجر أرجله جراً على الأرض.

فعرف أنه الثور، وأدرك أن دمنة لابد أن يكون قد ملأ قلبه خوفاً ورعباً منه، فاطمأن وهدأت نفسه واتكأ في مجلسه، وتظاهر بالقوة والعظمة، كما يفعل الملوك إذا دخل عليهم زائر غريب.

* * *

دخل دمنة على الملك أولاً، وقبل الأرض بين يديه، وطلب الإذن لشتربة، فأذن له؛ فرجع دمنة، ليُعلِم شتربة آداب الدخول على الملك.

وضع شتربة فمه عند قدمي الملك، وغرز قرنيه في التراب، وظل هكذا حتى أذن له الملك أن يرفع رأسه، فوقف خاضعاً ذليلاً، لا يتكلم

ولا يتحرك. فأراد الملك أن يؤنسه ويكرمه، فهش في وجهه، وابتسم له، وسأله عن قصته، وسبب نزوله في هذه الأرض.

فشكره شتربة وعظمه، وبالغ في الخضوع له، وإظهار الخوف منه، وحكى له قصته كاملة، فطيب خاطره، وقال له:

– لا بأس عليك، ولا خطر يلحقك، وقد صرت منذ اليوم أحد أفراد رعيتي المقربين مني، الملازمين لمجلسي، فإني أراك عاقلاً مفكراً، كثير الأدب، عظيم الحياء، والعلماء يقولون " إن العقلاء المؤدبين أحق الناس بالتقريب والتفضيل، لأن من يجلس معهم ويصاحبهم لا يسمع منهم إلا خيرا".

فلما سمع شتربة هذا المدح من الأسد، خفض رأسه، وغرز قرنيه في الأرض علامة على شكره وخضوعه.

* * *

ومضت الأيام على هذا، يحضر شتربة مجلس الأسد، والأسد يقربه ويدنيه منه، ويستشيره في كل أمر من الأمور. كلما مر يوم ظهر لشتربة فضل جديد، فزادت محبة الأسد له وعظمت منزلته في نفسه، حتى صار مقدماً على جميع الوحوش والسباع.

وعرف دمنة ما وصلت إليه منزلة شتربة من نفس الأسد، فاغتاظ واغتم، وكاد عقله يطير، وذهب إلى أخيه كليلة وقال له:

– أرأيت يا أخي كيف كنت فاسد الرأي، سيئ التدبير والتفكير؟!

سعيت في نفع الأسد، وأزلت خوفه ورعبه من الثور، وجئت إليه بهذا الثور الذي استولى على قلبه، وضيع منزلتي عنده، وجعله ينساني، وينسى كل خاصته وحاشيته!

فقال كليلة:

– نعم لقد جلبت على نفسك، وعلى الوحوش كلها أعظم الضرر، وما أظنك تستطيع أن تصلح ما أفسدت، لأن الثور قد استولى على قلب الملك، ولم يترك فيه مكانا لغيره، حتى صار الملك غير مستعد أن يسمع كلمة في حقه، ولو كانت كلمة صادقة فكيف يسمع كذبك، ويصدّق حيلك؟ وإن أردت أن تسمع مني كلمة حق، قلت لك:

– إن الأسد معذور في حب الثور وتقريبه، وتقديمه علينا معشر السباع، لأن الثور أظهر من الذكاء والإخلاص، وسلامة الرأي والتفكير، ما لم يجده الأسد عند واحد منا. ونحن حاقدون على الثور حقاً، ولكنا نسينا أن الأسد قد صلحت جميع أموره منذ عرف الثور وقرَبه إليه، وإذا صلحت أمور الملك، صلحت أمور الرعية كلها، وإذا فسد الملك واستبد وظلم، وقع الفساد في البلاد، وضاعت الرعية. فاترك الأسد والثور، ولا تدخل بينهما بفتنة جديدة، والأيام وحدها تستطيع أن تداوي جروح الحقد، التي في قلبك وقلوبنا جميعا.

فأجاب دمنة:

- العجب لك يا كليلة أترضى الذلة والهوان إلى هذا الحد؟ أترضى أن يتقدم علينا عند الملك آكل حشيش وعشب؟!

- وما عسى أن تصنع بالثور يا دمنة، وهو صاحب قوة وبطش، وسلاح محدد مستعد، وأنت ضعيف هزيل، لا تملك غير المكر والحيلة؟! عد إلى رشدك، واعرف قدرك، واترك الأمور لله يدبرها كما يشاء ويريد!

- لقد قلت صواباً يا كليلة.. نعم أنا صاحب مكر وحيلة، والعاقل يستطيع بحيلته أن يغلب الأقوياء، فقد حكوا أن غرابا صنع لنفسه عشاً، بين أغصان شجرة، وكان كلما أفرخت صغاره، وكبرت قليلاً، تسلل إليها ثعبان أسود خبيث، فابتلعها. فضاق صدر الغراب وعزم على أمر.. ولكنه قبل أن ينفذ ما عزم عليه، ذهب إلى صديق له من الثعالب يستشيره، وقال له:

- إني عزمت على أن أذهب إلى هذا الثعبان وهو نائم، فأنقر عينيه وأفقاهما، حتى لا يرى عُشي، ولا يعرف طريق الطعام، فيموت جوعا!!

فقال صديقه الثعلب:

- إن رأيك هذا ظاهر الخطأ والفساد، لأنك تُعرِض نفسك للهلاك، فقد تهلك قبل أن تصل إلى غرضك، وتحقق مطلبك، فتكون كالطائر الذي يسمى العلجوم حينما أراد أن يقتل السرطان -عقرب البحر- فقتل نفسه.

فقال الغراب:

– شكرا لك يا صديقي الناصح المخلص، وما قصة العلجوم هذا؟

فقال الثعلب:

– كان العلجوم طائراً يعيش سعيداً في شاطئ بحيرة كثيرة السمك، وبيني عشه بين الشجيرات المائية التي تنبت في هذا الشاطئ، وكلما جاع وجد من السمك غذاءه. ولما كبر وهرم ضعف عن صيد السمك، فجاع وحزن، ومر به ذات يوم سرطان، يعيش بين السمك في البحيرة؛ فلما رآه حزينا سأله عن سبب حزنه، فقال:

– كيف لا أحزن، وقد كنت أعيش من صيد السمك الذي هنا، وأجد منه الفطور والغداء والعشاء، وقد رأيت اليوم صيادين، كانا يمران في هذا الطريق وسمعت أحدهما يقول للآخر:

– إن هذه البحيرة كثيرة السمك، فهيا بنا نصيد ما فيها.

فأجابه الآخر:

– نعم هي كثيرة السمك حقيقة، ولكن البحيرة الأولى أكثر سمكاً منها، وماؤها يجف سريعاً، فهيا نصيد ما في البحيرة الأولى، ثم نعود إلى هذه البحيرة لنصيد ما فيها.هذا هو سبب حزني وخوفي، فإذا جاء الصيادان إلى هذه البحيرة، لم يتركا لي شيئا من الرزق فيها، لأن شباكهما تصيد الصغير والكبير من السمك، ولا تُبقي شيئا وراءها.

سمع السرطان هذه القصة المكذوبة من العلجوم، فصدقها وأسرع إلى جماعة السمك يخبرها بما سمع. فأقبلت جماعة السمك على العلجوم تستشيره فيما تفعل لتتخلص من خطر الصيادين، وقال له:

– قد جئناك لنستشيرك، وخطر الصياد يصيبك ويصيبنا، وإذا كانت المصيبة تشمل العدوين معا، وجب عليهما أن يتحدا، ويفكرا في الخلاص منها، فما رأيك فيما سمعت من الصيادين؟!

فأظهر العلجوم الحيرة والارتباك، وقال:

– ما أظن أننا نستطيع أن نرد عن أنفسنا أذى الصيادين، ولا حيلة لي بقوتهما وشباكهما، ولكني أعرف بحيرة قريبة من هنا، يخفيها الشجر والقصب، ولا يعرف طريقها الصيادان، فإذا انتقلتن إليها عشتن في سلام وأمن.

فقالت له الجماعة:

– إن هذه الخدمة لا يقدمها أحد غيرك، فاصنع فينا معروفاً، واحملنا إلى البحيرة التي تحدثت عنها.

فقال لهن:

– إن هذا العمل شاق علي، ومجهد لي، ولكني حرصاً على نفعكن، ومحافظة على الصداقة التي بيننا سأكلف نفسي كل مشقة من أجل سلامتكن.

* * *

وصار يحمل كل يوم سمكة أو سمكتين، ويطير بهما إلى جبل قريب، ثم يحط هناك ويفتك بهما ويأكلهما. ومضى على ذلك زمن، وهو يعيش بدون كد أو تعب، والسمك يسعى إليه، ولا يعرف حيلته حتى أوشك ما في البحيرة من السمك أن يفنى.

فجاءه السرطان ذات يوم، وقال له:

– إني كرهت العيش في هذه البحيرة، بعد انتقال أصحابي، فأرجوك أن تصنع معي الجميل، وتنقلني إليهم.

قبل العلجوم أن يحمله، وفرح بهذا، ورأى فيه أكلة طيبة مغذية، وطار به إلى الجبل. وما كاد يقترب من المكان الذي كان فيه حتى رأى السرطان عظام السمك مكدسة بعضها فوق بعض، فعرف كل شئ.. وضغط على عنق العلجوم بقرنيه، فمات.

ثم قال الثعلب للغراب:

وقد حكيت لك هذه القصة، لتعلم أن حيلة المحتال قد تهلكه هو أحيانا، ولكني أشير عليك برأي إذا نفذته استرحت من الثعبان..

قال الغراب:

– وما جئت إلا لأسألك الرأي والمشورة، فماذا ترى؟

– أرى أن تطير على منازل القرية، وتبحث عن شئ تخطفه منها، ثم تُلقيه فوق جحر الثعبان.

* * *

عرف الغراب بذكائه ما يقصده الثعلب بهذه الحيلة، وطار من فوره إلى القرية، وصار ينتقل من سطح منزل إلى سطح منزل آخر، حتى وجد بنتا قد خلعت عقدها الذهبي، ووضعته بجانبها، وجلست تغسل رأسها.

فسقط الغراب على العقد في غمضة عين، وطار به بعيدا عن السطح، فصاحت البنت، وقالت:

– أدركوني! أدركوني! الغراب خطف العقد، الغراب أمامكم والعقد معه! أدركوا العقد وخلَصوه من الغراب!

سمع الناس صياحها، فأسرعوا إليها وعرفوا ما حدث، ونظروا فوجدوا الغراب يطير في السماء بالقرب منهم، فجروا خلفه، فصار يطير ببطء، ويحط على الأرض قليلاً، حتى إذا اقتربوا منه طار غير بعيد..

وهكذا حتى وصل إلى جحر الثعبان والناس خلفه، فألقى العقد فوق الجحر، وحط على شجرة بعيدة، ليعرف عواقب حيلته، ويمتع نفسه بهلاك عدوه أمام عينيه.

فلما أراد الناس أن يأخذوا العقد، رأوا الثعبان، فاجتمعوا عليه وصاروا يضربونه بالحجارة والعصي حتى مات.

* * *

ولما انتهى دمنة من هاتين القصتين نظر إلى كليلة وقال:

– هل عرفت الآن كيف يحصل الإنسان على حاجته بحسن الحيلة؟!

فأجابه كليلة:

– إن الحيلة تنفع إذا كان عدوك جاهلا غبيا!! ولكن كيف تنفع حيلتك مع الثور، وهو أكثر منك ذكاء، وأكبر عقلاً، وأحسن تفكيراً؟! والدليل على ذلك أن الأسد امتحنه، فظهر له ذكاؤه وعقله وتفكيره، ولهذا صاحبه وقرَبه إليه، وفضله علينا.

فقال دمنة:

– نعم، إن الثور ذكي عاقل كما وصفته ولكنه مع هذا يعترف بأني صاحب فضل عليه، لأني أوصلته إلى الأسد، وطلبت له الأمان منه، وسأستغل ثقته بي، واطمئنانه لي، وأعمل على هلاكه والخلاص منه!!

فقال كليلة والألم ظاهر على وجهه:

– ويل لك يا دمنة!! أتخون من يثق بك، وتغدر بمن يطمئن إليك؟!

فأجابه دمنة:

– لا تلمني ولا تعتب علي يا كليلة!! فقد كنت ذا منزلة كريمة عند الملك، وقد أحسنت إلى هذا الثور، فنسي إحساني إليه، وأبعدني عن قلب الملك، واحتل منزلتي عنده. وأنت تعرف أن النفوس تحب مجلس الملوك، وترغب في القرب منها، ولا تُقصَر في السعي للوصول إليها، مهما يكلفها هذا السعي من الضرر والشقاء.وأنا لا يطيب لي عيش، ولا يهنأ لي طعام أو شراب، حتى أرى نفسي قريبا من الملك كما كنت، ولن أصل إلى ذلك إلا إذا تخلصت من الثور.

فقال كليلة:

– أراك تخاطر بحياتك!! وليس الثور هيناً حتى تغلبه وتتخلص منه!!

فأجابه دمنه:

– لقد تخلص أرنب من أسد، فكيف أعجز أنا عن التخلص من الثور؟! سترى ما يكون!

فقال كليلة:

– إنك لا تعرف إلا أخبار المكارين المحتالين، ولا تعرف شيئا من أخبار الأوفياء المخلصين، وأنت تريد أن تسمعني حيلة جديدة، فأخبرني ماذا صنعت الأرنب بالأسد؟

الفصل السادس

قال دمنة:

– زعموا أن أسدا كان في أرض خصبة، كثيرة المياه والعشب، طيبة المرعى والثمر، وكان فيها من الوحوش عدد كبير، ولكن هذه الوحوش كانت غير متمتعة بهذه الخيرات التي في الأرض، لأن الأسد كان ينغص عليها حياتها، ويهجم عليها، فيفترس منها ما يقدر عليه.فحبست الوحوش أنفسها في مساكنها، وصارت لا تخرج لترعى وتأكل، إلا في لحظات قصيرة، وهي في أشد الحرص والحذر من الأسد، تخاف أن يخرج عليها فجأة.

ولما طال بها الزمن، ولحقها الضرر، أرادت أن تصالح الأسد، وتتفق معه على أمر.. فذهب وفد من الوحوش إلى الأسد، وقالوا له:

– أيها الأسد العظيم، إنك تخيفنا وتفزعنا، ومع ذلك لا تنال منا الحيوان إلا بعد أن تتعب وتشقى فهل ترضى أن تبقى في مجلسك مستريحا هادئا، ونحن نرسل إليك كل يوم بحيوان منا؟!

وبذلك نأمن على أنفسنا، وتستريح أنت!!

فأجاب الأسد:

– رضيت بهذا الحل، والويل لكم إن أخلفتم الوعد.

* * *

رجع الوفد إلى جماعة الوحوش، وأخبرها هذا الخبر، وصارت الجماعة تضرب القرعة كل يوم، فمن أصابته القرعة، أرسل مع رسول إلى الأسد.

ومكثوا على ذلك زمانا، حتى جاءت القرعة على أرنب، فقالت:

– أيها الوحوش، أطلب إليكم طلبا هيناً يسيراً، فإذا وافقتم عليه، أرحتكم من الأسد إلى آخر العمر.

فقالوا لها:

– اطلبي ما تشائين!

– أطلب أن تأمروا الرسول الذي يذهب معي إلى الأسد، أن يتأخر بي في الطريق بعض الوقت.

– ما أيسر هذا الطلب وأهونه! فليتأخر الرسول كما تحبين.

وصلت الأرنب إلى الأسد، وقد فات ميعاد غذائه، فوجدته غاضبا ثائراً، تلمع عيناه بالشر، ويكشر عن أنيابه:

فاقتربت منه وحيته، وقالت:

– معذرةً وعفواً يا سيدي الملك، إني رسول جماعة الوحوش إليك، وقد أرسلتني ومعي أرنب سمين، وبينما أنا أسير بالأرنب في الطريق، طلع

عليّ أسد شرس وطلب مني الأرنب، فقلت له إنه مرسل إلى الملك، فشتمك وسبّك، وقال: ليس في هذه الأرض ملك غيري، وهجم عليّ وأخذ مني الأرنب، فجئت إليك لأخبرك بما حدث.

* * *

سمع الأسد هذه القصة وصدقها، وقال في غضب:

– أين هذا الأسد؟ سيكون لي معه شأن!! سيرى أمامي وعرفيني طريقه.

سارت الأرنب حتى وصلت إلى بئر عميقة، فيها ماء كثير صاف، فنظرت فيها وقالت:

– هنا يا سيدي، يسكن الأسد، وهذا هو الأرنب بجواره، لم يأكله.

نظر الأسد في ماء البئر، فرأى صورته فيه، وصورة الأرنب بجوارها، فصدَق كلام الأرنب، ووثب في البئر، ليخلص الأرنب من الأسد، فغرق من فوره، ورجعت الأرنب إلى جماعة الوحوش وأخبرتهن هذا الخبر السعيد.

فلما سمع كليلة القصة قال:

– لقد نصحتك كثيرا يا دمنة ولم تقبل النصيحة، فافعل بالثور ما تريد، ولكن احذر أن يكون في فعلك ما يضر الأسد ويؤذيه، فإنه ملكنا وسيدنا، والرعية لا تصلح من غيره.

* * *

انقطع دمنة عن الدخول عند الأسد عدة أيام، ثم عرف ذات يوم أنه وحيد فريد، ليس معه أحد من جلسائه، فدخل عليه، وتظاهر بأنه حزين مغموم، فلما رآه الأسد قال له:

– أين كنت يا دمنة؟ ولماذا طالت غيبتك عنا؟ ولماذا أنت مغتم حزين؟

فأجاب دمنة:

– جعلني الله فداك يا مولاي الملك! إن الذي يغمني ويحزنني أخبار مؤلمة جداً، لا أستطيع أن أتحدث بها أمام مولاي؛ وقد شُغلت بسببها عن حضور مجلس مولاي الملك، والتشرف بالقرب منه!

– أخبرنا يا دمنة بما يؤلمك ويحزنك، فأنت تستحق منا أن نعرف كل أخبارك، وأن تزيل كل ما تشكو منه، فإن كان مرضا طلبنا لك الأطباء، وإن كان ظلما وقع عليك من أحد، أخذنا لك حقك منه، ونصرناك عليه، وإن كان دينا سددناه عنك، ودفعنا للدائن ما يطلب، وإن كانت حاجة غير هذه الأمور، حققنا لك ما تحب منها..

فلما سمع دمنة ذلك، سجد أمام الملك، وقال له:

– جعلني الله فداك يا مولاي! لو كان سبب الحزن بلاء وقع في نفسي أو جسمي لهان عليّ الأمر وخف! ولكنه يا مولاي..

ولم يتم كلامه، وراح يرتعد ويضطرب، ويتظاهر بالحزن والخوف.

فقال الأسد:

– قل يا دمنة ولا تخف، حتى إذا كان الأمر يتعلق بنا..

فقال دمنة:

–إن العقلاء وأهل التجربة قالوا من قديم الزمان "لا يثمر المعروف عند اللئيم إلا شراً! ومن يشك في كلام المخلصين الناصحين، لا يجن إلا ندما وحسرة!" وأنا يا مولاي كنت مخدوعاً مغروراً في هذا الثور، وكنت مسروراً بتقريبك إياه، وتشريفك له، ولم أكن أعلم أنه لئيم خسيس، لا يصلح معه الجميل ولا يثمر عنده المعروف.

فقال الأسد في دهشة وثورة:

– ماذا تقول يا دمنة؟ الثور شتربة.. لئيم خسيس.. لا يصلح معه الجميل، ولا يثمر عنده المعروف!! ما هذه الأخبار التي تتحدث بها إلي؟ إنها أعجب شيء سمعته.

– لا تغضب يا مولاي ولا تثر، فإن الإنسان قد يضطر لسماع كلام لا يحبه، لأن فيه نفعه وخيره، كالمريض يشرب الدواء المر الطعم، الكرية الرائحة، لأنه يرجو الشفاء به، وأنت عظيم الثقة بشتربة، وقد استغل ثقتك به، ورضاك عنه، وراح يدبر المكايد للخلاص منك!

– شتربة يدبر المكايد للخلاص مني أنا؟ مع من يدبرها؟

– نعم يا مولاي، شتربة يدبر لك المكايد؛ وقد حدثني الصادق الذي لا يكذب أن شتربة جمع عدداً من رعيتك واختلى بهم، وذكر لهم عيوبك، وأخبرهم بمواضع النقص فيك، ولامهم على خضوعهم لك، ورضاهم بحكمك، وقد اعترفوا له بالخطأ في هذا الخضوع، وطلبوا منه أن يدبر لهم حيلة للخلاص منك..

– عجبا.. عجبا! إن شتربة كان في مجلسي أمس يظهر لي المودة والخضوع، ولم أر في وجهه أو حركاته ما يدل على الخيانة والغدر، فهل بلغ به المكر هذا الحد من التظاهر بما ليس فيه؟! وماذا يستطيع أن يفعل معي، وهو طعام لي؟!

– إن العاقل يا مولاي، يجب عليه ألا يغتر بمظاهر التودد من الناس، وألا يستصغر شأن عدو من أعدائه!! فإن شتربة إذا عجز بنفسه عن إلحاق الأذى والضرر بمولاي، استطاع بمكره وخبثه أن يثير نفوس الوحوش والسباع ضده، وقد أخبرني المحدث الصادق أنه يكاد ينجح فيما يريد، وخير للعاقل أن يستعد لكل أمر قبل وقوعه، حتى لا يصيبه ما أصاب السمكة الضعيفة المترددة.

فقال الأسد:

– إني بعد الذي سمعته منك، عن خيانة شتربة وغدره، أحتاج إلى سماع القصص التي تسلي سامعها، وتفيده دروسا وعبرا، فماذا أصاب السمكة المترددة؟!

فأجاب دمنة:

– نعم يا مولاي، إنها قصة نافعة مفيدة، والعاقل يستفيد بما يحدث لغيره، ويتخذ منه درسا وعظة، كان يوجد في بحيرة ثلاث سمكات، تعيش في نعمة وخير كثير، وفي ذات يوم مر بالبحيرة صيادان فقال أحدهما:

– ما أعجب شأننا!! إن هذه البحيرة قريبة من منازلنا، وهي متصلة بالبحر، فلا شك أنها كثيرة السمك، ونحن مع هذا لم نتنبه إليها، ولم نصد منها أبدا!!

فقال الثاني:

– هيا بنا نحضر شبكتنا ونعود إليها لنصيد ما فيها.

ولم تكن السمكات الثلاث على درجة واحدة من الحزم والذكاء، فلما سمعت كلام الصيادين، خافت أكثرهن حزماً وذكاءاً، وسبحت من فورها حتى وصلت إلى القناة، التي تصل بين البحيرة والبحر، وعبرتها وصارت في مكان أمين من البحر.

وأما الثانية، فإنها شكَت في كلام الصيادين، وقالت في نفسها:

– إن اليوم قد مضى، والصيد لا يكون إلا في الصباح المبكر، وسأترك البحيرة على مهل في الليل.

وأما الثالثة فلم تشغل نفسها بالتفكير في النجاة، بل ظلت آمنة مطمئنة، مشغولة بالأكل والمرعى، وكأنها لم تسمع شيئا.

* * *

وبعد قليل، أقبل الصيادان ومعهما الشباك. فلما رأتهما السمكة الثانية، عرفت أنها وقعت في خطر كبير، ولكنها قالت في نفسها:

– إن الإنسان العاقل، يجب عليه أن يهدأ ويسكن عند وقوع المصيبة، ليعرف بعقله الهادئ طريق الخلاص ما وقع فيه، أما إذا خاف وطاش عقله، وارتبكت نفسه، فإنه يعجز عن دفع البلاء، ولا يقدر على الخلاص من الأذى والشر.

ولما فرغت من هذا التفكير في نفسها، تظاهرت بالموت، وصارت تعوم على ظهرها تارة، وعلى بطنها تارة أخرى.

فحسبها الصيادان ميتة، وأخذها أحدهما، وألقاها على الأرض بين البحيرة والبحر، وأدار ظهره لها. فلما اطمأنت إلى عدم رؤية الصياد لها، نطت نطة عالية، فصارت في البحر، وبذلك نجت.

وأما الثالثة، فأخذت تتردد، وتطفو فوق الماء تارة، وتغوص تارة أخرى، وتظن أن الشبكة لن تصيبها، حتى وقعت عليها الشبكة، وكان في ذلك هلاكها.

* * *

فلما سمع الأسد ذلك، قال لدمنة:

– قد فهمت كلامك، وعرفت قصدك، ولكني في الحقيقة شديد العجب من أمر شتربة معي!! كيف يحاول الغدر بي، والثورة عليّ، وأنا لم أسئ إليه، ولم أترك رغبة له إلا حققتها، وقد رفعت منزلته وشرَفت قدره؟!

– ليس في الأمر ما يستدعي العجب والدهشة يا مولاي، لأن شتربة حقير خسيس، ومن طبع الخسيس أن يغتر إذا رفع قدره، وعلت منزلته، وإذا أظهر الإخلاص يوما، فإنما يظهره لخوفه وذله، أما إذا أمن اطمأن على نفسه، فإنه يعود إلى اللؤم والغدر، وهذا ما فعله شتربة معك، فقد كان مخلصاً ناصحاً لك، حتى شعر بالقوة وعلو المنزلة، فصار يدبر المكائد ليتخلص منك، ويستولي على عرشك وملكك.

فقال الأسد:

– لقد جعلتني يا دمنة أكره لقاء شتربة، وأكره النظر إليه، ولولا أني أعطيته الأمان من قبل لفتكت به، وجعلته طعاماً لي ولكم!! ولكني سأرسل إليه الآن، وأحاسبه على ما صنع من تدبير وغدر، ثم أطلب منه أن يرحل عن بلادي هذه، إلى أي جهة يرغب فيها!!

خاف دمنة أن يدعو الأسد شتربة إليه، ويدور بينهما حديث وعتاب، فيعرف الحقيقة، وتظهر براءة شتربة، وبذلك يستحق هو العقاب، وتنزل عليه المصائب، فقال:

– أنا لا أوافق على هذا الرأي يا مولاي، لأنك إذا أرسلت إلى شتربة، فهم ما تقصد، واستعد للقائك، فإذا قاتلك، كان مستعداً، وإذا هرب منك، دبر لك المكائد وهو بعيد عنك. والملوك العقلاء مثلك يا مولاي، يعاقبون أعداءهم على قدر جرائمهم، فمن أظهر المعصية والجريمة، أظهروا له العقوبة والجزاء، ومن أخفى عداوته، وكتم حقده، ودبر عصيانه

في الخفاء والستر، جعلوا عقوبته خفية مستورة؛ وهذا الثور يدبر أموره في السر، فاجعل عقوبته في السر، ولا تعلنه بها، بل خذه على غفلة منه.

فقال الأسد:

– ولكن العقلاء من الناس يقولون "إن الذي يعاقب أحدا لم يظهر ذنبه، ولم يقم دليل على جريمته، يكون معتدياً ظالماً، وتقع عليه عواقب الظلم والاعتداء"، فكيف أغدر بشتربة ولم يقم دليل على جريمته؟!

فقال دمنة:

– ما دمت يا مولاي، لا تحب أن تعجل العقوبة لشتربة، قبل أن يظهر ذنبه، ويعلن عصيانه وثورته، فاحترس منه كل الاحتراس، واحذر كل الحذر، وانظر حتى ينكشف أمره بعد قليل من الأيام، وسترى عليه علامات إذا دخل عليك، وهو يعزم على الشر.

فقال الأسد:

– حسن! ما دامت هناك علامات نعرف بها ما يريد أن يفعله، فلا نخاف منه، وما هذه العلامات؟!

– سترى لونه متغيراً، وترى أعضاءه ترتعد وترتعش، وتراه ينظر يميناً وشمالاً، ويهز قرنيه بقوة، كأنه يريد النطاح.

– هذه علامات كافية! وسأظل أستقبله، وأحسن إليه، حتى أرى هذه العلامات، فأعرف ما يجب عليّ أن أفعله معه.

* * *

أحس دمنة أنه غير قلب الأسد على شتربة، وأن حيلته نجحت معه، فأراد أن يذهب إلى شتربة ويغير قلبه على الأسد، وخاف أن يذهب إليه بدون إذن من الأسد، فقال:

– أرى أن تأذن لي يا مولاي، أن أذهب إلى شتربة، وأجلس معه بعض الوقت، لعلي أعرف شيئاً جديداً من أخباره، وقد كان يثق بي ويطمئن إلي، فربما ساعدني ذلك على معرفة ما يدور بنفسه، ويشغل قلبه وباله.

فأذن له الأسد وقال:

– إنك يا دمنة ناصح مخلص، حسن الحيلة والتدبير، وأرجو أن تعود، ومعك كل أخبار شتربة بالتفصيل، حتى نعامله بما يستحق من الجزاء.

الفصل السابع

دخل دمنة على شتربة، فاستقبله بالترحيب والإكرام، وقدَم له واجب الضيافة، وقال له:

- أين كنت يا أخي العزيز؟ لقد طالت غيبتك عني، وشغلت نفسي عليك! وما عودتني من قبل أن يهجرني، وتغيب عني!! هل حدث مني شئ آلمك وأغضبك؟

- كلا يا شتربة، فأنت الصديق الوفي المهذب، صاحب اللسان العذب، والقلب الطاهر، ومثلك لا يحدث منه إلا ما يسر الأصدقاء!! ولكن حدث ما لا كنت أنتظره، ولا أتوقع!

- ماذا حدث؟! قل.. خبرني.. هل أصابك مكروه؟! إني أجعل نفسي فداء لك يا دمنة، وهذا أقل ما تستحق من الجزاء! خبرني.. قل ماذا حدث؟!

- ليت كل مكروه في هذه الدنيا أصابني ونزل بي.. ولم يحدث هذا الشئ الفظيع الذي حدث!! ولكن ما حيلتنا في قضاء الله؟! وقد قال العقلاء" إن الذي يصاحب الملوك لا يدوم له أمن، ولا يبقى له عز وسلام"..

– ماذا تقول يا دمنة؟! أراك تشير إلى أشياء حدثت من ملكنا الأسد العادل؟! ماذا حدث؟ أسرع! أسرع بالخبر!!

تصنع دمنة الحزن والغضب، وبكى قليلا، ثم رفع رأسه وقا:

– إن الضعفاء مثلنا، لا حقوق لهم أمام الأقوياء؛ وقلوب الملوك متغيرة متقلبه مثل الريح، فبينما هم يحبون كل الحب، إذا هم يكرهون أشد الكره..

وقد أخبرني الصادق الأمين أنه سمع الملك يقول لأصحابه:

لقد سمن شتربة وامتلأ جسمه شحماً ولحماً، ولم يبق عنده رأى نافعاً، ولا تفكير مفيد، لأننا حصلنا على كل آراءه النافعة، فخير لي ولكم أن نصنع من لحمه وليمة شهية، وندعو إليها أفراد رعيتنا؛ وما كدت أسمع هذا الخبر، الذي كله غدر ومكر، حتى تذكرت العهد الذي عاهدتك عليه، والضمان الذي ضمنته لك، وجئت أسعى إليك، لنفكر معاً في حيلة تنجيك من هذا الشر.

* * *

فلما سمع شتربة هذا القول، اضطرب وخاف، وظهر اليأس على وجهه، وفي عينيه، وقال:

– وهل لنا حيلة في هذا يا صديقي العزيز؟! لقد كنت أنا غير عاقل، حينما اطمأننت إلى الأسد ورضيت بمعاشرته والجلوس معه، وكان يجب

علي أن أنتظر هذه النهاية، لأني طعام للأسد ولأعوانه وأنصاره، وإذا لم يكن هو محتاجاً إلى أكلي، مشتهيا لحمي وشحمي، فإن أصحابه يحتاجون إلى أكلي، ويشتهونه، ويزينون له قتلي والغدر بي.وقد كنت أعرف كل هذا، وأعرف القصص والحكايات، التي تعلمني الدروس والعبر، ولكني خدعت واطمأننت، فجزائي أن أتقبل هذه الخاتمة لحياتي راضياً، كما تقبلها الجمل قبلي..

فأظهر دمنة، الجزع والحزن، وقال:

– أخبرني بقصة الجمل هذا، فربما وجدت فيها حيلة نافعة.

فقال شتربة:

– كان أسد في غابة، وكان معه غراب وثعلب وذئب، وهم جميعا تابعون له، فهو يطعمهم، وهم يخدمونه. وفي ذات يوم هرب جمل من قافلة، كانت تسير بالقرب من الغابة ودخل الغابة، لعله يجد فيها مخبأ يختبئ فيه، فوقع في عرين –بيت– الأسد، فاستقبله الأسد بالعطف والحنان، وسأله عن قصته، فأخبره بأن التجار أثقلوا عليه الأحمال، حتى أوشك أن يسقط من التعب والجهد، ولهذا هرب منهم حينما وجد فرصة. فطيب الأسد خاطره، وطمأنه على نفسه ومستقبله وأقام معهم في الغابة.

* * *

وفي ذات يوم خرج الأسد للصيد، فوقعت بينه وبين فيل معركة شديدة، عاد منها متعبا مجروحاً، وظل أياماً عاجزاً عن الصيد.

ولما اشتد عليه وعلى خدمه الجوع، جمعهم وقال لهم:

– انتشروا في الغابة وابحثوا عن طعام نأكله، فإن الجوع يوشك أن يقتلني ويقتلكم.

ساروا قليلا في الغابة، ثم دبَروا أمرا، ورجعوا إلى الأسد، فلما رآهم فرح، وظن أنهم عادوا بصيد سمين، ولكنهم قالوا:

– إن الذي يسعى وبصيد، هو الذي يشعر بالقوة والنشاط، أما نحن فقد جعنا حتى ضعفنا عن المشي والحركة!!

فقال الأسد:

– وماذا نعمل؟ هل نرضى بالجوع حتى نموت؟

وهنا قال الغراب:

– إن الأمر يا مولاي لا يحتاج إلى الكد والتعب.. فهذا الجمل آكل العشب يقيم معنا، وهو طعام لك ولنا..

وما كاد الأسد يسمع هذا الكلام حتى تغير وغضب وقال:

– إخرس أيها الغراب! ماذا تقول؟ الجمل طعام لي ولكم؟! أنسيت أني أعطيته الأمان، وضمنت له السلامة؟!

فقال الغراب:

– لا تغضب يا مولاي ولا تثر، فقد مرضت وضعفت وأصبحت حياتك مهددة بالخطر، ومن حقك أن تدفع الموت عن نفسك بأكل هذا الجمل! وسنحتال نحن عليه، حتى لا تكون قد غدرت به.

فلما سمع الأسد ذلك، سكت ولم يتكلم، فعرف الغراب أنه موافق على هذا الرأي.

* * *

ثم اجتمع الغراب والذئب والثعلب والجمل عند الأسد، وأخذوا يسألونه عن صحته، فقال الغراب:

– إني أرى الجوع قد اشتد عليك يا مولاي، وأنا لا أعيش إلا من أجلك، فكلني وأبعد الجوع عن نفسك.

فقال الثعلب:

– وماذا فيك أيها الغراب من الغذاء إنك ريش وعظم، ولا خير فيك! وأنا أكثر منك لحما، فليأكلني أنا مولاي الملك!!

فقال الذئب:

– إن لحمك خسيس قذر أيها الثعلب، ولكني أنظف منك لحما وأكثر شحما، فليأكلني أنا مولاي الملك!!

فقال الثعلب:

– لقد قالت الحكماء "إن أكل لحم الذئب يسبب الجنون"، فلا خير في أكلك.

وهنا ظن الجمل المسكين، أنه إذا عرض نفسه على الأسد دافعوا عنه كما دافعوا عن أنفسهم، وبذلك يرضي الأسد، ويسلم هو من الأذى، فقال:

– لا.. لا.. أنا خير منكم جميعا، ولحمي شفاء من كل داء، فليأكلني مولاي الملك.

فصاحوا جميعا

– صدقت صدقت.

ووثبوا عليه ومزقوه.

* * *

ثم قال شتربة بعد هذه القصة:

– هل عرفت الحقيقة الآن يا دمنة؟ وهل عرفت أنه لا نجاة مما أراده الأسد؟

فأجاب دمنة:

– ولكن ماذا تريد أن تصنع؟

– أنا أخبرتك أن الذي قدّره الله لابد أن يقع ويحدث، ولكني سأدافع عن نفسي أشد دفاع، ولا يمكن أن أسلم نفسي للأسد طائعاً مختاراً، راضياً بحكمه عليّ، فلابد من القتال والحرب، وليكن ما يكون بعد ذلك!!

– كلا.. لا أرى لك هذا الرأي، ولا أوافقك عليه بأي حال!! فإنك لو دخلت على الأسد ثائراً مهتاجاً، لا تحسن التصرف معه، والحكماء يقولون "إن العاقل إذا قابل الشدائد بالثورة والهياج، طار عقله وساء تصرفه، وإذا استقبلها بالصبر والتأني، أحسن التفكير، ووفق للخلاص منها"، وخير لك أن تصبر حتى ترى الشر في عيني الأسد، فتدافع عن نفسك بقوة وحزم.

– وكيف أعرف ذلك من الأسد؟!

– إذا دخلت عليه، ووجدته قد جلس منتصباً، واعتمد على ذراعيه، وكشر عن أنيابه، واحمرت عيناه، فاعلم أنه يضمر الشر لك.

– حسن، هذه علامات كافية، والله يعينني عليه، ويحفظني من شره!!

* * *

ولما فرغ دمنة من حمل الأسد على الثور، وحمل الثور على الأسد، ذهب إلى أخيه كليل، وأخبره بكل ما حدث منه.

وسار كليلة ودمنة، حتى وصلا إلى باب الأسد، ووقفا ينتظران هناك، ويشاهدان ما يحدث بين الأسد والثور.

الفصل الثامن

بعد قليل جاء الثور، ودخل على الأسد، فوجده على الحالة التي سمع وصفها من دمنة، فقال في نفسه:

– إن الذي يجاور الملوك ويصاحبهم، مثل الذي يسكن في منزل مع ثعبان خبيث، فهو لا يطمئن إلى الحياة، ولا يأمن أن يثور عليه الثعبان، في أي لحظة من لحظات النهار والليل.

وظهر عليه التغير، وارتعدت أعضاؤه، واهتز جسمه.

* * *

ولما رآه الأسد، وجده على الحالة التي سمع وصفها من دمنة، فظن أنه جاء ليقاتله.وهجم كل واحد منهما على الآخر، بدون تفكير ولا صبر، واشتد القتال بينهما.. الأسد يضرب الثور بكفه ومخالبه، والثور ينطح الأسد بقرنيه، وسال الدم منهما غزيراً، وارتفع زئير الأسد، وعلا خوار الثور.

فلما رأى كليلة هذا التعب الذي لحق الأسد، وهذا الضرر الذي أصابه، قال لدمنة:

– ويل لم أيها الجاهل الغادر الخائن!! لقد وعدتني أنك تدبر تدبيراً يهلك الثور، ولا يضر الأسد، ولكنك غششتني وخدعتني، وقد حاولت

إصلاحك فعجزت ولم أقدر، وأصابني منك هذا الألم الذي أحسه الآن، وأنا أنظر إلى ملكنا يسيل منه الدم، ولقد صنعت بي ما صنعته القرود مع الطائر الذي نصحها.

فقد اشتد البرد في إحدى الليالي، وشعر القرود بقسوته عليهم، وصاروا يبحثون عن نار تدفئهم، وبعد قليل رأوا ذبابة حمراء، كأنها شرارة من النار، فهجموا عليها وأمسكوها، ووضعوا عليها أعوادا من الحطب الجاف، وصاروا ينفخون.. ينفخون.. لتشتعل النار، حتى تعبوا ولم تشتعل، وكان بالقرب منهم طائر على شجرة، يرى ما يصنعون، فصاح بهم:

– هذا طائر، وليس بنار.. لا تتعبوا أنفسكم لن تشتعل النار.

ولكنهم لم يسمعوا نصائحه، ولم ينقطعوا عن النفخ؛ فاقترب منهم وصار يصيح بهم، فاغتاظ أحدهم وأمسكه وضرب به الأرض، فمات من وقته وساعته.

وأنت يا دمنة أوشكت أن تقتلني بسبب ما فعلته مع الأسد. فليس من الخير لي أن أعاشرك، أو أعيش معك، حتى لا يصيبني منك، ما أصاب المغفل من صديقه الخب الماكر.

فقال دمنة:

– وماذا حدث بين هذين الصديقين؟

فأجابه كليلة:

– اشترك مغفل ومكار في تجارة وسافرا، وبينما هما يسيران في الطريق، وجد المغفل كيسا به ألف دينار، فأخذه وأخفاه، ولكن المكار عرفه وأحس به، فقال للمغفل:

– إننا شرطنا أن نقسم كل ربح بيننا، وهذا الكيس من الربح.

فرضي المغفل أن يأخذ كل منهما نصفه، ورجعا إلى بلدهما، وجلسا يقتسمان الكيس، فقال المكار، وقد عزم على أمر:

– لا.. لا.. إنه لا فرق بيني وبينك، ومن الخير لنا أن نظل في عيشة واحدة، فخذ أنت ما تشاء من المال، وآخذ أنا ما أشاء، وندفن الباقي تحت هذه الشجرة، وكلما احتجنا إلى مال جئنا معا فأخذنا ما يكفينا منه.

صدّق المغفل ما سمعه من المكار، وأخذا من الكيس قليلا من المال، ودفناه تحت شجرة كبيرة، وعلما موضعها وشكلها، ودخلا بلدهما.

وفي الليل عاد المكار إلى الشجرة، وأخرج الكيس وأخذه كله، ولم يبق منه شيئا للمغفل.

وبعد أيام احتاج المغفل إلى مال، فذهب إلى صديقه المكار، وطلب منه أن يذهب معه إلى الكنز، ليحضرا ما يحتاجان إليه. ولما وصلا إلى الشجرة، أخذ المكار يحفر تحتها، ليخرج الكيس، فحفر.. ثم حفر.. وانتقل من حفرة إلى حفرة أخرى.. ولكنه لم يجد الكيس!!

فألقى الفأس، وشق ثيابه، ولطم وجهه، وشد شعره، وصار يصيح بأعلى صوته:

– الكنز.. الكيس.. الدنانير.. مالي ضاع!! كنزي سرق!! آه.. يا خائن يا غادر!! لقد سرقت الكنز!!

ولما رأى المغفل ذلك الفعل، أخذ يحلف له أنه ما سرقه، وما رآه، وما حضر هنا منذ افترقا..

لكن المكار تظاهر بعدم التصديق، وقال:

– لم يكن معنا أحد، ولم يرنا أحد، فلا يمكن أن يعرف طريق الكنز أحد غيرك.

* * *

ذهب المكار إلى القاضي، وشكا إليه المغفل، وطلب منه أن يحكم عليه بردّ الكنز، وإعادة الكيس والدنانير. ولما سأل القاضي المغفل، حلف له أنه لم يأخذ الكيس، وأنه بريئ من سرقة الكنز، فقال القاضي للمكار:

– هل عندك شهود؟

فأجاب المكار:

– نعم، الشجرة التي دفنا عندها الكنز تشهد عليه.

فتعجب القاضي مما سمع، وطلب منهما أن يسيرا معه إلى هذه الشجرة ليسألها.

* * *

وكان المكار قد أوصى أباه أن يختبئ بين أغصان الشجرة حتى لا يراه أحد. ولما وصل القاضي وأصحابه إلى الشجرة وسألها قائل:

– أيتها الشجرة الأمينة الصادقة، هل رأيت من أخذ الكنز الذي دفن تحتك؟

فأجابه أبو المكار من مخبئه:

– نعم يا سيدي القاضي، حضر المغفل ذات ليلة وحفر الأرض بفأسه، وأخرج الكيس، وحمله على ظهره وسار به إلى بيته.

فتظاهر القاضي بالتصديق، وقال:

– هذه شجرة عجيبة، ولو عاشت بعد الآن لخدع الناس بها وعبدوها من دون الله، هيا اجمعوا الحطب وألقوه تحتها، لنحرقها حتى لا تضلل الناس فيعبدوها.

وما كادت النار تشتعل في الشجرة حتى صار أبو المكار:

– أنقذوني! أنقذوني! أنا أبو المكار! أعترف بأنه كاذب، وأنه هو الذي سرق الكيس.

فأشبعه القاضي ضربا هو وابنه، وحكم على المكار برد الكيس وجميع الدنانير إلى المغفل.

* * *

ثم قال كليلة:

– وقد حكيت لك يا دمنة، هذه الحكاية، لتعلم أن الخيانة والغدر، يعودان على صاحبهما بالشر والضرر، ولا خير لي في صحبتك بعد اليوم.

وحينما انتهى كليلة من كلامه، كان الأسد قد فرغ من قتال الثور وإهلاكه، فلم يرد دمنه على كليلة، ولكنه أسرع إلى الأسد ودخل عليه وهو يقول:

– أهنئك يا سيدي الملك، بتغلبك على عدوك، وإهلاكك لخصمك!!

ولكن الأسد بدل أن يظهر عليه السرور والفرح ظهر الألم في وجهه وقال:

– إنني يا دمنة، شديد الأسف والحزن على قتل شتربة، فقد خسرت إخلاصه وعقله وحبه لي، ولن أجد في رعيتي من يعوضني منه، وأخشى أن يكون قد قُتل مظلوما مكذوبا عليه!!

* * *

وهنا قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

– حقا إن هذا الكذاب المحتال قد استطاع أن يفرق بين الصديقين المتحابين، فهل تم فرحه، وفاز بقرب المنزلة من الأسد؟

فقال بيدبا الفيلسوف:

– كلا يا سيدي الملك، بعدما فرغ الأسد من قتل شتربة، وهدأت نفسه، وسكنت ثورته، تذكر الأيام السعيدة التي قضاها في صحبة شتربة، وتذكر إخلاص شتربة له، وعقله الكبير، وذكاءه النادر، وتذكر الخدمات العظيمة التي كان شتربة يقدمها له، فحزن كثيرا، واشتدت همومه وآلامه، وصار يقول في نفسه:

– لقد تسرعت وتعجلت في عقاب شتربة، ولم يقم دليلاً واحد على أنه كان يريد أن يخونني ويغدر بي، ولم أسمع في حقه كلمة عيب واحدة من أحد غير دمنة!! وهل كان دمنة صادقا فيما قال عنه؟!

وهكذا كان الأسد يقضي أيامه في حزن وهم، حتى كره الطعام والشراب، وضعف جسمه، وتغير لونه، وزهد في مقابلة أهله وأصدقائه.

وكان أعز أصدقائه عليه بعد شتربة، وأقربهم من نفسه، نمر عاقل. وكان النمر هو وحده الذي يستطيع أن يدخل على الأسد ويسليه بالقصص والحكايات، ويعزيه عن فقد صديقه العزيز شتربة.

* * *

وفي إحدى الليالي، سهر النمر طويلا مع الأسد، حتى قارب نصف الليل، ثم استأذن وانصرف.

وبينما هو سائر في طريقه إلى منزله، مر على منزل كليلة ودمنة، فسمع كليلة يعاتب دمنة، ويلومه على التصرف الذي تصرفه مع الأسد والثور، ويقول له:

– يا أخي، لقد نصحتك كثيراً، وحذرتك أن توقع بين الأسد والثور، وخوفتك أن تفسد الصداقة التي بينهما، فلم تسمع نصيحتي، ولم تقبل كلامي.

وقد عرف الأسد خطأه في قتل شتربة، ولابد أن يجئ اليوم الذي ينكشف فيه أمرك، ويعرف الأسد حيلتك ومكرك، وكذبك على صديقه العزيز شتربة؛ وعندئذ ينتقم منك شر انتقام، ويشتهر أمرك بين الرعية والأهل والأصدقاء، بأنك كذوب محتال نمام، فإذا قتلك الأسد، فرح الجميع بقتلك، وإذا عفا عنك ولم يقتلك، احتقرتك الرعية، ونفر منك الأهل والأصدقاء، وعشت مكروهاً محتقراً من الجميع.

وما أشد خوفي أن يعرف الأسد صلتي بك، فتصيبني لعنته وعقابه، وينالني شره وأذاه!!

سأقطع صلتي بك من هذه اللحظة، وأترك لك المنزل، وأبحث عن مكان آخر أسكنه، وأريح نفسي من المصائب التي سوف تأتي بها الأيام.

* * *

سمع النمر هذا الحديث بين كليلة ودمنة، وعرف قصة شتربة كاملة، وأدرك أنه قُتل ظلما، بتدبير دمنة الخائن الغدار. فلم يستمر في سيره إلى منزله، بل رجع من فوره إلى منزل أم الأسد، وطلب الإذن عليها، ودخل.

حيا النمر أم الأسد، وقال لها:

– معذرة يا سيدتي العظيمة !! لقد جئت إليك في ساعة متأخرة من الليل، لا تصح فيها الزيارة، ولا يحسن فيها طلب الإذن، ولولا أمر خطير عرفته الآن، ما جئت في هذه الساعة، وقد أحببت أن أطلعك عليه في وقته، وأعرّفك به في حينه وساعته..

فقالت أم الأسد:

– إن بيتي مفتوح لأولادي في كل وقت، وإن إخلاصك للملك، وحبك إياه، يجعلني أطمئن إلى دخولك في أي ساعة من ساعات الليل والنهار!! وأعتقد أنك جئت في أمر يتعلق بالملك، فهل اعتقادي صحيح يا نمر؟!

– نعم يا أمي العظيمة، فأنت ترين كيف ساءت حال الملك، وكيف ضعفت صحته، لشدة حزنه بعد قتل شتربة، وقد شاء الله أن يكشف لي الحقيقة الآن، وأن أعرف وأسمع السبب الذي من أجله قتل شتربة مظلوماً. وإذا عرف مولاي الملك هذه الحقيقة، وانتقم من الذي دبر هذه المؤامرة ضد شتربة، زال عنه كل سبب من أسباب الهم والحزن، وطابت نفسه، ورجع إلى ما كان عليه من الحياة السعيدة الهنية.

* * *

ما كادت أم الاسد تسمع هذا الكلام من النمر، حتى فرحت وسرت ونشطت لسماع الخبر، وقالت:

– قل يا نمر ما عندك.. أخبرني بما سمعت وعرفت.. هل يعود الملك إلى حياته الأولى السعيدة؟ يا ليت!! يا ليت!!

– نعم يا أمي، أرجو أن تعود إلى مولاي الملك سعادته وسروره!! ولكن هذا الخبر الذي تسمعينه مني الآن، أحب أن يبقى بيني وبينك، وأحب أن تبحثي عن وسيلة، وطريقة تعرفين بها الملك حقيقة الأمر، بدون أن تذكري اسمي له، أو تعرفيه شيئا من هذا الحديث الذي يدور بيني وبينك الآن.

– كن واثقا أن ما أسمعه منك الآن سيظل سراً محفوظاً مكتوماً، لا يعرف منه أحد شيئا، حتى الملك، وأحلف لك على هذا بشرف الملك، وشرف السباع.

* * *

حكى النمر كل ما سمعه من كليلة، فلما سمعت أم الأسد القصة بأكملها، تعجبت ودهشت، وقالت:

– دمنة!! دمنة الذي كان خادماً ذليلاً، مطروحاً على باب الملك، لا يهتم به أحد، ولا يفكر فيه أحد.. ثم قربه الملك، ورفع منزلته، حتى صار العظماء من الرعية يحسدونه ويغارون منه! دمنة يدبر هذا التدبير، ويسبب

للملك الشقاء والهم والحزن، ويوقع بينه وبين أعز أصدقائه، حتى يحمله على قتله والفتك؟! يا للغدر! يا للخيانة! يا للكذب والاحتيال!!

الفصل التاسع

استأذن النمر وخرج إلى منزله، وبقيت أم الأسد لا تهدأ ولا تستقر، ولا يخالط النوم عينيها، حتى طلع النهار، فتوجهت إلى الأسد، ودخلت عليه، فوجدته لا يزال مهموما حزينا، تظهر عليه آثار التفكير والسهر، فقالت له:

– ألا تزال في هم وحزن؟!

– نعم يا أمي، إني لا أعرف كيف أتعزى عن شتربة، لقد كان شتربة لي صديقاً مخلصاً، وخادماً وفياً، ينفعني برأيه ومشورته، وقد قتلته من غير دليل على خيانته وغدره!!

– لقد شهدت على نفسك يا ولدي، واعترفت بخطئك وتسرعك، وأصدق الشهادات، شهادة الإنسان على نفسه، فانظر كيف تحاسب نفسك! ولولا أن إذاعة الأسرار جريمة كبيرة، وذنب عظيم، حرَمته جميع الأديان، ونهت عنه كل الأخلاق الكريمة، لأخبرتك بما عرفت وعلمت، لتعرف أنك كنت ظالما لشتربة أشد الظلم، وقاسيا عليه أشد القسوة!

– ليست إذاعة الأسرار محرمة في كل وقت، فإذا كان إخفاء السر يضيع حق مظلوم، أو يساعد مجرماً على جريمته، كان هذا الإخفاء حراماً، وكانت إذاعة السر واجبة؛ وأنت تعلمين يا أمي، أني أشك في سبب قتل

شتربة، فإذا كنت قد عرفت السبب والحقيقة، فواجب عليك أن تخبريني بما عرفت، حتى أعاقب من دبَر هذا التدبير، ولا أتركه يعيش فرحان مسروراً، سعيداً بنجاح خطته وغدره.

* * *

أخبرت أم الأسد ولدها، بكل ما سمعته من النمر، ولكنها لم تذكر له اسمه، ولم تخبره كيف عرفت ذلك، وكيف سمعته، وقالت له:

– إني لا أجهل عقوبة من يذيع السر، ولكني رأيت صلاحك وصلاح الرعية، لا يكون إلا إذا عرفت هذا السر، فأخبرتك به، ولعل الله يسامحني ويغفر لي، لأنني أريد الخير من وراء هذا الفعل.

* * *

جمع الأسد جنوده ورجاله، وأمر حاجبه أن يدعو دمنة إلى المجلس، فلما دخل دمنة، ورأى الجمع الكبير، ورأى حزن الأسد الشديد، التفت إلى أحد الواقفين وقال:

– ماذا أصاب مولاي الملك؟ ولماذا يحزن مولاي ويهتم؟!

فقالت أم الأسد:

– إن الذي يحزن الملك، أن يراك حيا ولو ساعة من نهار، ولن تزول أحزان الملك وتذهب، إلا إذا قتلك، وجعل لحمك، طعاما لأخس الطير، وأحط السباع.

فنظر دمنة في وجوه الجالسين وقال:

– صدق العقلاء الذين قالوا في الزمان القديم "إن الذي يخاف الوقوع في الشر، ويبذل جهده ليبتعد عن الأذى، قد يكون الشر أقرب إليه من غيره"، وهأنذا قد حرصت كل الحرص على السلامة والنجاة، فأحببت مولاي الملك، وأخلصت له كل الإخلاص، لأتجنب غضبه، وأنجو من عقابه، ولكني وقعت فيما خفت منه، وجلبت على نفسي الشر من حيث أردت لها الخير!!

ثم التفت إلى أم الأسد وقال لها:

– ولو كانت لي يا سيدتي الملكة ألف نفس، وعرفت أن حزن الملك يذهب، وسروره يعود بتقديم هذه الأنفس كلها في إرضائه، ما بخلت بها، وما رأيت في تقديمها فضلا يستحق من مولاي الشكر والجزاء. وأنا لا أدافع عن نفسي الآن، لأهرب من الموت، لأن الموت لا يستطع أحد أن يهرب منه، ولكني لا أحب للأسد أن يحكم علي بسبب جريمة لم يقم عليها دليل ولا برهان، حتى تتهمه الرعية بالظلم والقسوة.

فقال أحد الجنود:

– إن دمنة لا يقول هذا القول حباً في الملك، ولكنه يحاول الدفاع عن نفسه، بهذا الكلام المزوق المزخرف.

فالتفت إليه دمنة وقال ساخرا:

– لك الويل! لقد كان سكوتك خيرا لك، ولكنك تكلمت فكشفت عن جهلك وحقدك، وسوء رأيك في الناس.

وهل يعاب الإنسان إذا دافع عن نفسه؟ وإذا لم يدافع الإنسان عن نفسه فعن أي شيء في الدنيا يدافع؟! وإن من لا خير فيه لنفسه، لا يمكن أن يكون فيه خير لغيره، وقد برهنت بهذا الكلام الذي نطقت به من غير تفكير، على أنك عدو لنفسك، ومن كان عدواً لنفسه، كان عدواً للناس جميعاً، لا يحبهم، ولا يرغب في الخير لهم، وأنت بهذا لا تستحق أن تكون مع البهائم، فكيف تجترئ على الجلوس مع مولانا الملك والإقتراب منه؟!

فما كاد دمنة يُلقي هذا الكلام، حتى سُحِر الحاضرون به، وانكسر خاطر الجندي، وبكى وخرج من مجلس الأسد.

ولكن أم الأسد، لم تخدع بهذا الكلام المزخرف، والتفتت إلى دمنة وقالت:

– عجبت لك أيها المحتال الكذاب، كيف تزوق الكلام، وتجعل الكذب صدقاً، والباطل حقاً، وترد هذا الرد القاسي الشديد على من يخاطبك، وهو الصادق، وأنت الكذاب الغادر؟!

فأجابها دمنة:

– لست كذاباً ولا محتالاً، ولكنك تنظرين إليّ بعين واحدة.. هي عين الكراهة والعداوة والحقد، ولهذا ترين كل حسن في قبيحاً، وكل صدق مني

كذباً، وكل وفاء وإخلاص، احتيالاً ومكراً وخديعة.. ولا حيلة لي في هذا، ولا ذنب لي عندك، ولكنه قضاء من الله، يريد أن يقضي به عليّ، وإذا أراد الله بإنسان سوءاً وشراً، لم يستطع الدفاع عن نفسه.

فنظرت أم الأسد إلى الجالسين وقالت:

– هل رأيتم يا أولادي، كيف يحاول هذا المجرم أن يتبرأ من جرمه، وأن يظهر أمامكم طاهراً تقياً من الذنوب؟! يجب أن تبحثوا حقيقة أمره، وأن تكشفوا ما خفي من أعماله، حتى يخرس لسانه، وتنقطع حججه وأكاذيبه.

قالت هذا، وتركت المجلس غاضبة، ورجعت إلى بيتها.

فدعا الملك القاضي، وأمره أن يعقد جلسة لمحاكمة دمنة، وأمر الجنود أن يضعوا دمنة في السجن، حتى تتم محاكمته.

فوضع الجنود سلسلة غليظة في عنق دمنة، وسحبوه إلى السجن، ليبقى هناك تحت الحراسة.

* * *

ولما انتصف الليل، عرف كليلة أن دمنة في السجن، فجاءه متخفياً، ولما رآه وهو مقيد بالقيود والسلاسل، وموضوع في مكان ضيق، بكى وقال له:

– هذا ما كنت أخشاه عليك، وأخاف أن تقع فيه، وقد نصحتك كثيراً ولكنك لم تسمع النصيحة، ولم تترك الغرور والكبر، حتى وقعت في هذه المصيبة، وقد صدق العقلاء حينما قالوا "إن المحتال يموت قبل أوان موته، وحلول ساعة أجله، لأنه باحتياله يجلب على نفسه المصائب، التي تسبب هلاكه وموته قبل الأوان".

فأجابه دمنة:

– صدقت يا كليلة فيما قلت، وقد رفضت قبول نصائحك، وأنا الآن أجني ثمرة المخالفة، وقد قال العقلاء "إذا حلت بك مصيبة بسبب سوء تصرفك فلا تجزع ولا تحزن، لأنك أنت السبب فيما أصابك"، وإذا عوقب الإنسان على ذنبه في الدنيا، كان هذا العقاب خيراً له وأهون من عقاب الآخرة في جهنم.

فبكى كليلة وقال:

– إن الذي يهوَن عليَ أمرك، أني ما قصرت في نصيحتك، ولولا ذلك لعددت نفسي الآن مسئولا عن المصائب التي حلت بك، وأرجو أن يكون عقابك خفيفاً، وجزاؤك هيناً.

وتركه وانصرف إلى منزله.

* * *

وكان في السجن مع دمنة فهد ذكي،، وكان واقفا في هذا الوقت على مقربة من كليلة ودمنة، وهو يراهما ويسمع كلامهما، وهما لا يريانه، فسمع كل ما حدث بينهما، وعرف أن دمنة مقر بذنبه معترف بجريمته، وحفظ كل ما سمع، حتى يشهد به، إذا دُعي للشهادة.

وفي الصباح بكَرت أم الأسد بالدخول عليه، وقالت له:

– إن أفضل شئ يتقرب به الإنسان إلى الله، أن يعجل المحاكمة، لينال المذنب جزاءه، ويأخذ البريء حقه، وقد وعدت أمس بمحاكمة دمنة، فعجل المحاكمة لتنال رضا الله.

فلما سمع الأسد كلامها، أمر أن يحضر النمر، وهو الذي يتولى القضاء والحكم، وطلب منه ومن القاضي العادل –وهو عم الأسد، وكان معروفا بالصلاح والتقوى– أن يعقدا جلسة، لمحاكمة دمنة، ويدعوا الجنود والرعية ليشهدوا بما يعرفون من أمر دمنة.

فقالا:

– سمعاً وطاعة لما أمر الملك به.

الفصل العاشر

وخرجا من عنده، وعقدا الجلسة، ونادى المنادي في الرعية يدعوهم إلى الحضور؛ فلما امتلأت قاعة الجلسة، أحضر دمنة، وقال النمر:

– اعلموا أيها الإخوان، أن مولانا الملك، يتهم دمنة بأنه دبَر الحيلة لقتل شتربة ظلماً، وأنه حزين شديد الحزن لما حدث منه مع شتربة، ولكنه لا يريد أن يظلم دمنة، فمن كان منكم يعلم شيئا من الحقيقة، فليقل ما يعلم، ولا يخفي شيئا. واعلموا أن أكبر ذنب عند الله، إخفاء الشهادة، وكتم الحقيقة، وقد قالوا "إن الذي يكتم الشهادة يوضع في فمه يوم القيامة لجام من نار".

فنظر دمنة إليهم، وقال:

– تكلموا ولا تخفوا شيئا، واعلموا أن عندي لكل كلمة جواباً ورداً، ومن تكلم بغير ما يعلم، أصابه ما أصاب الذي ادعى الطب، وهو جاهل به.

فقالوا له:

– وماذا أصابه؟

قال:

– مرضت بنت ملك من الملوك، فحضر رجل سفيه ناقص العقل، وادعى أنه يعرف الطب والدواء، ودخل خزانة الملك، وأخرج منها دواء لا يعرف حقيقته، وقدَمه للبنت المريضة، فلما شربته ماتت من ساعتها. فلما رأى الملك ذلك، سقاه كأسا من هذا الدواء، فقضى عليه.

* * *

وكان في الحاضرين سيد الخنازير، وكان الأسد يحبه ويقربه، وكثيراً ما كان يدعوه للأكل معه.

فقال سيد الخنازير:

– أيها السادة، إن العاقل يعرف حقيقة الشخص من العلامات التي ترتسم على وجهه، وفي وجه هذا الشقي المسمى دمنة، علامات كثيرة تدل على خبثه ومكره وخداعه، وفيها الكفاية لمن أراد أن يحكم عليه.

فقال النمر:

– لا شك أنك يا سيد الخنازير خبير بمعرفة الصور والأشكال، ولا يستطيع أحد منا أن يجاريك في هذه المعرفة، فماذا رأيت من العلامات على وجه دمنة؟!

فقال سيد الخنازير وهو منفوخ متكبر:

– إن العلماء يقولون "من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى، وكان أنفه مائلا إلى جهة اليمين، كان شقيا خبيثا مكارا"، وأنتم ترون هذه الصفات في دمنة.

فالتفت إليه دمنة وقال:

– عجبا لك أيها الجاهل المغرور!! تصفني بهذه الصفات، وأنت قذر، قبيح المنظر، أعرج، منفوخ البطن، مشقوق الشفة! ولو اشتغل مثلك كناسا أو دبّاغا، لكان ذلك كثيرا عليه، ولكنك لحمقك وغرورك، تقصد مجلس الملك، وتأكل من طعامه، ولو عرف مولانا الملك قذارتك، لنفاك من مجلسه، وحرمك شرف القرب منه، ولو أني كنت خبيثا مكارا كما وصفتني، لأخبرت الملك بما أعرف عنك من هذه الأوصاف القذرة؛ ولكني طيب طاهر النفس، فلم أنقل إلى الأسد ما يغير قلبه عليك.

فلما سمع سيد الخنازير هذا الكلام الشديد، انكسر قلبه، وخجل واستحيا وخرج من قاعة الجلسة.

وانتهى اليوم ورفعت الجلسة، وأعيد دمنة إلى سجنه.

* * *

وكان في الجلسة ثعلب مخلص للأسد، وقد كلفه الأسد أن ينقل إليه كل ما يحدث في الجلسة بأمانة وصدق، فلما أخبره بما جرى بين دمنة وبين سيد الخنازير، عافت نفسه سيد الخنازير، وأمر أن يمنع من الدخول عليه.

ثم إن ثعلبا من الذين يحضرون مجلس الملك، اسمه روزبة، ذهب إلى دمنة في سجنه خفية، وأخبره وهو حزين أن كليلة مرض من شدة حزنه على دمنة ومات، فبكى دمنة بكاءاً شديداً وقال:

– ما بقي لي في هذه الدنيا شيء أحرص عليه حتى أرغب في الحياة والعيش من أجله، فقد مات أخي المخلص الوفي، فليأت الموت إلي في أي ساعة.

ثم نظر إلى روزبة وقال له:

– أحمد الله الذي زرقني أخاً وفياً وكريماً، بعد موت أخي كليلة، فسيكون فيك خير عوض منه.

ثم قال له:

– إن لنا أموالاً مخبوءة في جانب من منزلي، كنت جمعتها، بكدي وسعي أنا وأخي كليلة –رحمه الله– فأرجو أن تذهب وتحضرها لي الآن.

* * *

ولما أحضر روزبة هذا المال، قدمه دمنة إليه، وقال:

– خذه وانتفع به، وأصلح به شأنك وشأن عيالك، ولي عندك حاجة واحدة.. وهي أن تلازم مجلس الأسد، وتعرف كل شيء يحدث بينه وبين أمه بخصوصي، وتخبرني بما تعرف في وقته.

وعد روزبة دمنة بذلك، وحمل المال إلى بيته، وفي الصباح انطلق إلى مجلس الأسد. ولما حضرت أم الأسد، طلب الأسد محضر الجلسة وقرأه على أمه، وقال لها:

– أخشى أن يكون دمنة مظلوماً فإن ما نطق به يشعر بأنه بريء.

فغضبت أمه وصاحت وقالت:

– إن دمنة بمكره، يوشك أن يفسد عقلك، ويهلك ملكك.. وتركته وانصرفت.

* * *

أمر الأسد بعقد الجلسة، فانعقدت وحضر الشهود، وأحضر دمنة، وقال القاضي:

– يا دمنة إن أمرك لا يخفى على الملك، ولا يخفى علينا، ولكنا نعطيك فرصة التوبة والإعتراف بالذنب فإذا اعترفت بذنبك، كان هذا الإعتراف سببا في العفو عنك، وإذا أصررت على الإنكار، سببت لنفسك الأذى والضرر.

فقال دمنة:

– أيها القاضي العادل، إنك تطلب مني الإعتراف بذنب لم أرتكبه، ولو وافقتك واعترفت هذا الاعتراف الذي تريده، لكنت قد وشيت بنفسي، وأوقعت بها من غير ذنب منها. وأنت تحاكمني الآن لأنك تتهمني

–ظلما– بأني وشيت بشتربة وأوقعت به، فكيف يجوز أن تطلب مني أن أشي بنفسي وأوقع بها؟! وكيف أعتذر أمامكم إذا أنا وشبت بنفسي كاذباً لأرضيكم؟! إنك أيها القاضي معروف بالعدل والنزاهة، فكيف خفي عليك أن ما تطلبه مني، لا يجوز أن يطلبه قاض عادل؟

رفع القاضي الجلسة، وأرسل المحضر إلى الأسد، فلما قرأه الأسد وأطلع أمه عليه، قالت غاضبة:

– إني الآن لا أحزن ولا أفكر فيما مضى من احتيال دمنة عليك، حتى قتلت أعز أصدقائك، ولكني أفكر وأحزن من أجل ما سيحدثه دمنة في ملكك ورعيتك، وأخشى أن ينالك من شره ومكره ما لا نستطيع رده والخلاص منه!!

فقال الأسد في حزم:

– يجب عليك إذا أن تخبريني باسم الذي نقل إليك أخبار دمنة من قبل، فإني لا أحب أن أقتله بغير دليل وبرهان.

فقالت أمه:

– إن إفشاء السر أقبح شيء، ولكني سأطلب ممن أخبرني، أن يتولى هو إخبارك بنفسه، بما سمعه ورآه.

* * *

وقامت الأم إلى النمر، وعرّفته ما يجب عليه من ذكر الشهادة، ليعاون الملك على الحق، ونشر العدل في الرعية. وما زالت به تناقشه وتقنعه حتى اقتنع، ودخل على الأسد وحلف اليمين أمامه، وذكر كل ما سمعه من حوار كليلة ودمنة، واعتراف دمنة على نفسه، وإقراره بالذنب والجريمة.

لما عرف الفهد الذي كان محبوسا مع دمنة، أن النمر شهد واعترف، أرسل إلى الأسد وأخبره أن عنده شهادة. فأخرجه الأسد، وسمع شهادته، وكانت مثل شهادة النمر.

ولما سألهما الأسد:

– لماذا أخفيتما الشهادة كل هذه المدة؟

قال كل منهم:

– كنت أخشى ألا يكون معي شاهد آخر، وشهادة واحد لا تكفي.

عندئذ استراحت نفس الأسد وأمر بشنق دمنة.

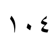
* * *

قال بيدبا الفيلسوف:

فمن سمع هذه القصة، ورأى هذه العاقبة، عرف أن من أراد نفع نفسه بضرر غيره سيجزى أشنع الجزاء.

فقال دبشليم الملك:

– صدقت أيها الفيلسوف الحكيم.



الفهرس